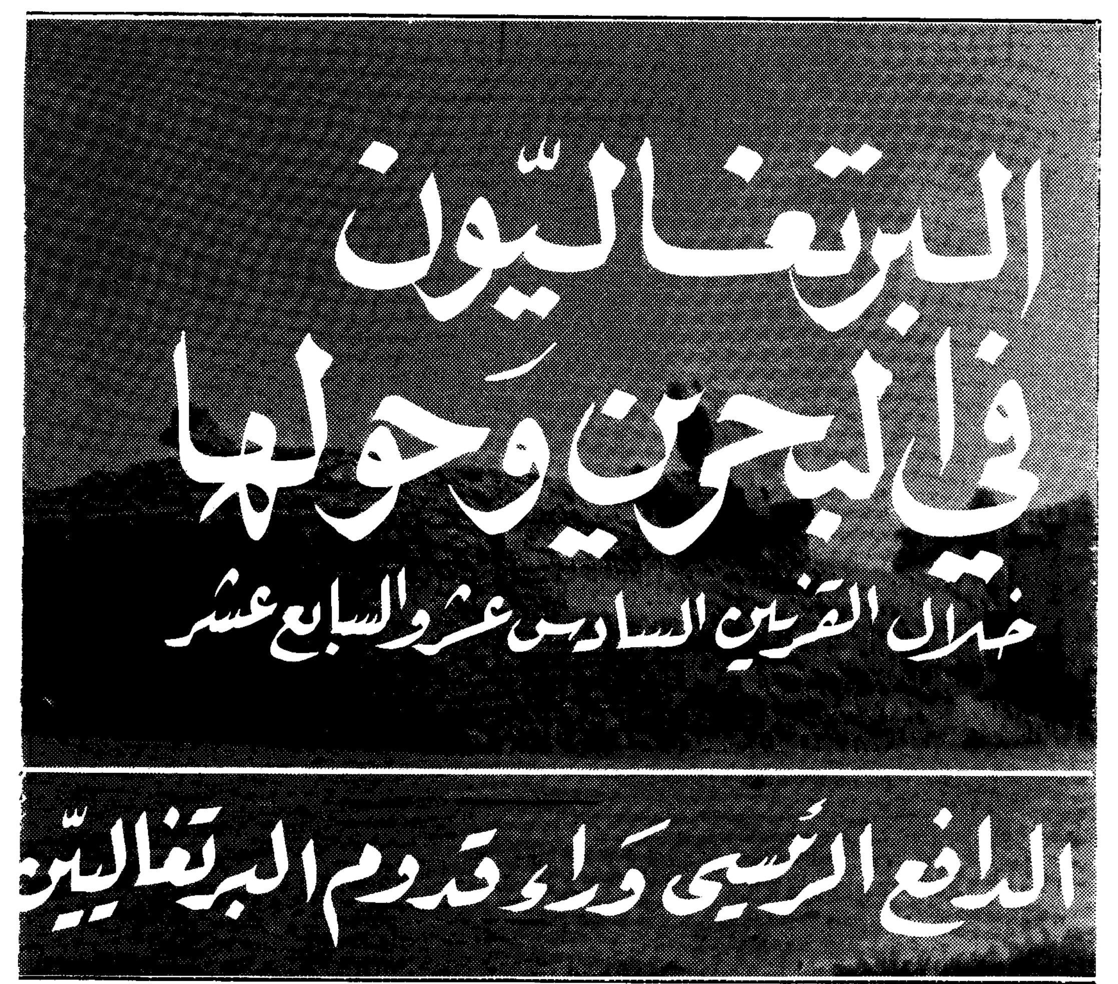
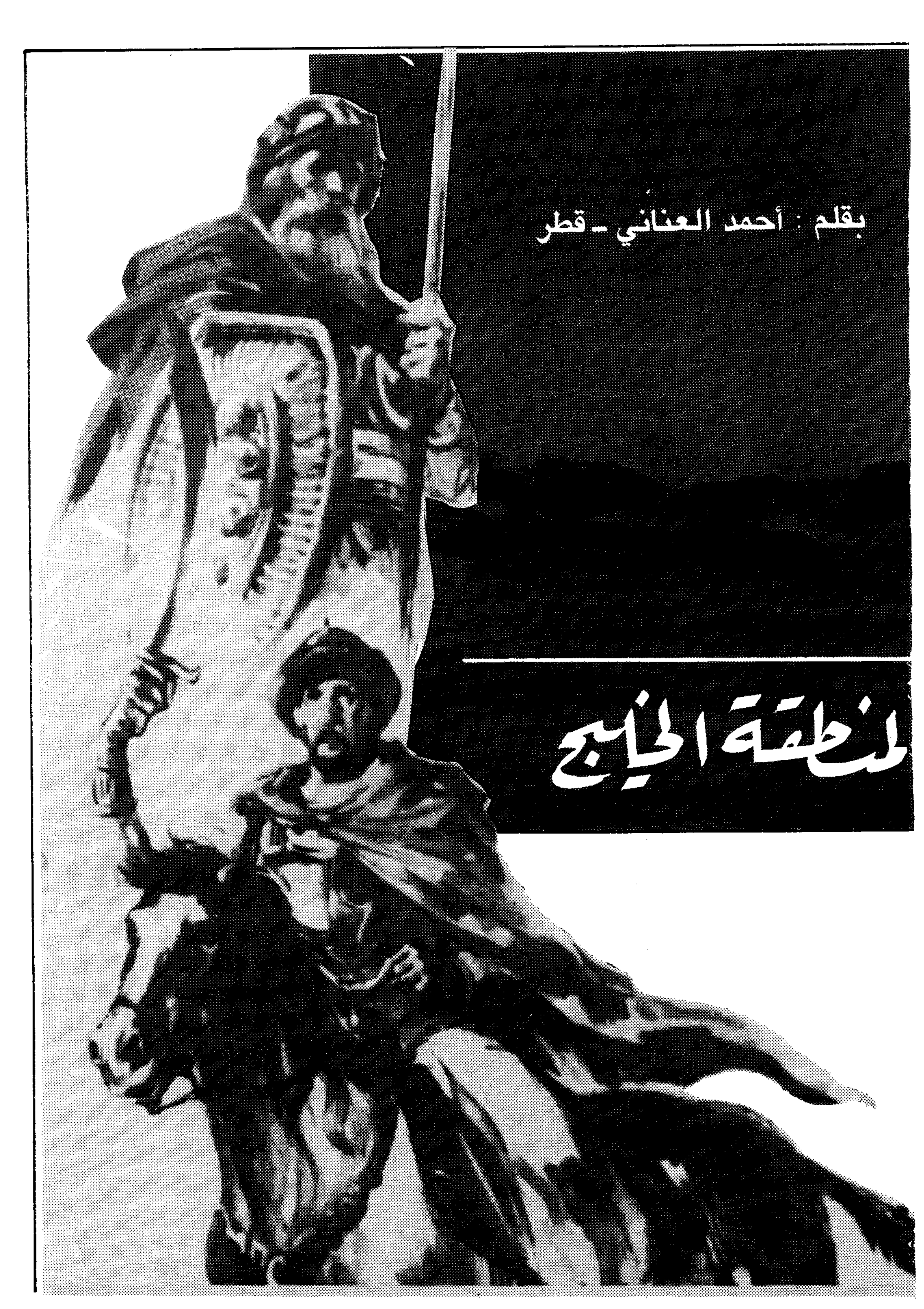
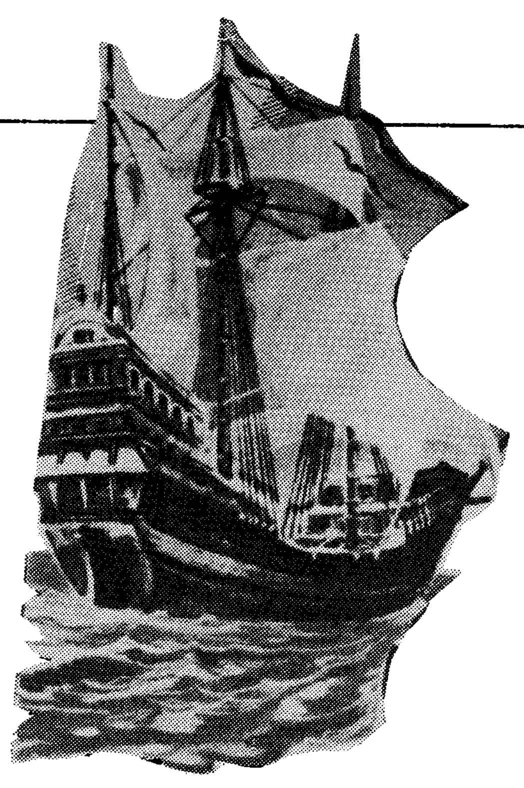


تعتبر فترة الوجود البرتغـالي في حوض الخليـج العربي وعلى مياهه من أشد الفترات حلكة في تاريخ هذا الجانب من الوطن العـربي فلقـد أظهـر ذلك الشعب الواغـل في الوطن الاسلامي انه كان ممتلئا حتى الثمالة كراهية للمسلمين وحقدا عليهم وتعطشا لسفك دمائهم ونهب ديارهم، ومعروف عن هذا الشعب ضآلة موارده الطبيعية في بلاده الجبلية التي تكسو معظمها الاشجار البرية الحرجية، كما انه كان دائم الاحساس بالغبن حيال جيرانه المباشرين من الاسبـان في شبه جـزيرة ايبيريا التي دخلها الاسلام بعد معركة شريش الحاسمة اوائل القرن الثامن للميلاد في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان. وقد خضع معظم بـلاد البرتغـال للمسلمين الذين كان لهم وجود مستمر لأكثر من ثلاثمائة سنة في سائر



لمنطقة الخليج

بقلم : أحمد العناني ـ قطر



مناطقه، ولا تزال آثار الحضارة الاسلامية والعمران الاسلامي ماثلة في العاصمة لشبونة والمدن الاقليمية ولا سيما كويمبره التي كانت تعرف لثلاثة قرون في العصر الاسلامي باسم القلمرية.

لكن مياه البرتغال كانت وما تزال معروفة بوجود انواع طيبة من الاسماك فيها كسمك السردين ولما كان معظم البلاد واقعا على ساحل المحيط الاطلسي فقد ادى هذان العاملان الى اقبال البرتغاليين على البحر، وتمرسهم بالفنون الملاحية.

وعلى أثر سقوط دولة غرناطة آخر معاقل المسلمين في شبه جزيرة ايبيريا بأيدي الاسبان اصبح علماء المسلمين واساتذتهم المشاهير في علوم الفلك والبحار وغيرها تحت رحمة اعدائهم الذين اعتصروا منهم كل ما يستطيعونه واستغلوهم على احسن ما استطاعوا، وقد ظهر في البرتغال عندئذ سلسلة من الحكام اهمهم هنري الملاح من المتحمسين للاكتشافات البحرية ومن الحالمين بنهب ثروات الشرق الاسلامي والوصول الى الهند ومصادر البضائع الثمينة كالتوابل والحرير وخشب الصندل والعطور والعاج وريش النعام وغيرها.

ان هنري الملاح وغيره من حكام اسبانيا خاصة واوربا الغربية لم يعتبروا سقوط غرناطة وخروج المسلمين من القارة الاوربية نهاية للحروب الصليبية وانما هم استأنفوها ضد شمال افريقيا مستغلين لاقصى الحدود تفوقهم النسبي الناشىء عن تفرق المسلمين منذ سقوط دولة الموحدين التي أنشأها عبد المؤمن بن علي ورد بها عاديات المشركين عن الوطن الاسلامي.. ورغم ان الموانىء العربية الاسلامية في شمالي افريقيا اصابها ضرر بالغ من الاعتداءات الصليبية الا ان المسلمين استطاعوا في معركة وادي المخازن الحاسمة ان يوقفوا كل طموح للاوربيين المعتدين للتغلغل في عمق الوطن الاسلامي.

كذلك فأن استغاثات الاقلية الاسلامية التي بقيت في وطنها الاسباني تقاسي من ظلم الحكومات الصليبية استفزت الكثيرين من المسلمين في المشرق ومن هؤلاء عدد من مشاهير البحارة الابطال كخير الدين بربروسا وبيير رئيسي التركيين ممن اسهموا في القتال دفاعا عن الاسلام في غربي البحر الابيض المتوسط.

على ان البرتغاليين لم يكونوا ليجدوا امامهم اى عائق يذكر في انطلاقهم ازاء السواحل الغربية الافريقية على المحيط الاطلسي، وقد ظلوا بالفعل يتقدمون من هناك شيئا فشيئا، ويطرحون عنهم خرافات الماضي عن محاذير بحر الظلمات الى ان تمكن بحار مغامر منهم يدعى فاسكو دي غاما من الالتفاف قبيل انتهاء القرن الخامس عشر من حول رأس الرجاء الصالح ليدخل المياه الاسلامية في شرقي افريقيا وليصبح المحيط الهندي وكل من البحرين التجاريين المفضيين اليه، البحر الاحمر والخليج العربي مهدده جميعها بطوفان الاوربيين المتحرقين شوقا للوصول الى طرق التجارة الاسلامية ومصادر الشرق للمواد الاولية، وكان البرتغاليون بطبيعة الحال هم رأس الرمح لهذا الزحف الجديد.

البرتغاليون في الهند والخليج

من الأمور المؤسفة بلا ريب اننا نفتقر الى المصادر التاريخية الاسلامية في سائر الفترات التاريخية غير المواتية لنا، من ذلك هذه الفترة الممتدة من بداية القرن السادس عشر وحتى اوائل القرن السابع عشر حين قامت ثورة اليعاربة العمانيين الذين تمكنوا من طرد البرتغاليين من مسقط ثم من سائر الارض العمانية. هناك بعض المعلومات عن قبيلة الجبور المتفوقة في منطقة الاحساء ولكنها معلومات لا تقدم اية صورة شاملة متماسكة للاوضاع العربية في الخليج خلال ذلك القرن السادس عشر البالغ الحلكه، لكنها تؤكد هدفا أساسيا من اهداف هذا البحث عن البرتغاليين في البحرين وما حولها الا وهو تعاون الأطراف العربية في المنطقة في الانتقاض على البرتغاليين ومقاومتهم قدر الاستطاعة.

نحن لذلك مضطرون مع بالغ الاسف الى قبول الرواية البرتغالية للعديد من الاحداث خلال تفوق البرتغاليين، وازاء هذه الروايات فأن حديثنا عن الحرب الصليبية التي ظلت مستعرة في الشمال الافريقي حتى بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في اسبانيا هو حديث وارد ذلك بأن البرتغاليين كانوا يعتبرون انفسهم جنودا للصليب في محاربة

المسلمين بدلالة ما يلي:

اولا : اتصالهم بنجاشي الحبشة وتحريضه على الدخول معهم في حلف نصراني لمقاتلة المسلمين «١» ونشر المسيحية في اراض جديدة.

ثانيا : اصرارهم في سائر اتفاقاتهم مع هرمز على تثبيت شارة الصليب على الابنية الادارية الرسمية في الجزيرة...

ثالثا : التماسهم من البابا الموافقة على تسمية البرتغاليين بـ «سادة الفتح والملاحة في الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس» وهو التماس أقره البابا وصدق عليه.

رابعا : واهم مما سبق جميعا انهم كانوا يكتبون الى الملك عمانويل الاول ملك البرتغال رسائل مستفيضة يتحدثون فيها بافتخار بالغ عن حريق بلاد الكفار «ويعنون المسلمين» وعن بقر بطون الحوامل وجدع انوف الاسرى وآذانهم، ناهيك عن النهب والسلب معتبرين ذلك مفاخر تستأهل التسجيل، وذلك وارد في رسائل سائر قادتهم المعروفين كالفونسودي البوكيرك، ودي الميدا وغيرهما.

ولم يحدث اطلاقا ان حصلت مواجهة بين الحضارتين الاسلامية والنصرانية على الاسس التي استعان بها البرتغاليون وهي القضاء على طرق التجارة الاسلامية والاقتصاد الاسلامي وتقتيل المسلمين وتشتيتهم واحلال الدين المسيحي والحضارة المسيحية مكان دينهم ولقد كان البرتغاليون يعلمون ان القوة القاهرة هي وسيلتهم الوحيدة للمحافظة على وجودهم ولهذا عمدوا الى انشاء القلاع الحصينة حيثما كان ذلك لازما كما انهم ظلوا في المراحل الاولى من انتشارهم الواسع في الهند والخليج وشرقي افريقيا يحافظون على تقاليد بحرية صارمة ويختارون لقياداتهم افضل الضباط واصلبهم عودا واشدهم احتمالا للشدائد والى هؤلاء يعزى أكبر الفضل في استمرارية حكمهم، حتى اذا ما وقعت البرتغال تحت حكم جيرانها الاسبان عام ١٥٨٠م بدأت تلك التقاليد الصارمة تفقد قوتها وفاعليتها ، وبدا واضحا منذ مطلع القرن السابع عشر ان عهد الضباط الاقوياء المغامرين قد انتهى وان اسطورة المنعة البرتغالية بدأت تفقد سحرها..الى ان جاء وقت اصبح فيه البرتغاليون مجرد مرتزقة يتشبثون بأطلال ماض زال ويؤجرون خدماتهم للحكام المحليين كما تشير الى ذلك الوثائق البرتغالية «٢» نفسها.

البحرين قبل البرتغاليين

وقبل ان يصبح الكلام واردا في العلاقات البحرينية البرتغالية التي هي صلب هذا البحث، يقتضينا الوضوح العلمي ان نشرح اوضاع البحرين خلال الجزء الاخير من القرن الرابع عشر للميلاد « السابع / الثامن للهجرة» السابق لظهور البرتغاليين على مسرح الاحداث في الخليج، وسوف نجد هنا تشابكا كبيرا في علاقات البحرين بكل من هرمز من جهة، وبالاحساء من الجهة الاخرى. الاولى بسبب وضعها التجاري الفذ، والاخرى بالنظر لتحركات ونفوذ اسرة الجبوريين ولا سيما مقرن بن أجود بن زامل الذي تسميه المصادر العربية سلطان البحرين والقطيف « ٣ » وأرى من الملائم هنا ان اقتبس بعض ما يذكره صاحب تحفه المستفيد في صدد هذا الأمر «ولما مات سيف بن زامل خلفه اخوه اجود بن زامل واتسعت مملكته بحيث

ملك البحرين وعمان» وانتزع مملكة هرمز من ابن أخ الصرغل. وكـان رئيس نجد هذا ذا أتباع يزيدون عن الوصف مـع فـروسيه.. وقـال السيد السمهـودي في كتابه «وفا الوفا بأخبار دار المصـطفى» «٤» صلى الله عليه وسلم.. رئيس اهـل نجد ورأسها سلطان البحرين والقطيف، فريد الوصف والنعت صلاحا وافضـالا وحسن عقيده، ابو الجود اجود بن زامل بن جبر ايده الله وسدده. ويزيد على ذلك الشيخ عبد القادر الجزيـري الحنبلي في كتابه «درر الفوائد المنظومة» «٥» قوله في اجـود بن زامل « ... وولي بعـد اخيـه واتسعت له المملكة بحيث ملك البحرين وعمان ثم قام حتى انتزع مملكة هرموز من ابن اخ لصرغل كان استقر فيها بعد موت ابيه » .. وهنـا تثور اسئلة كثيـرة بطبيعة الحال.. متى والى متى استمرت تبعية هرمز والبحرين للجبوريين وما هى الأوضاع التى جعلت من الممكن أن يفضي الحـال بمثل تلك المـراكـز الحضـاريـة والتجـارية ذات الثـراء والقوى البحـريـة الى الوقوع تحت رحمة قوة برية نجدية كالجبوريين؟

في الواقع ان الظروف التي جعلت من الممكن قيام دولة قوية في هرمز هي نفسها التي كانت تؤدي احيانا الى انتقال زمام الأمور الى عرب الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية..

مملكة هرمز وكيف نشأت؟

يذكر تكسيرا انه كان لهرمز القديمة سـلالة من الحكام العـرب الذين روى تاريخهم احد احفـادهم المدعـو طوران شاه فذكر ان مؤسس السلالة كان الشاه محمد درهم كوب وهو شيخ عـربي من اصل خليجي كون هذه المملكة في اواخر القرن العاشر للميـلاد، وذلك قبل فتـرة ملحوظة من تعرض هذه المملكة التجارية لغارات الفرسـان التتار التي اضـطرت الملك العربي وشعبه ان يهجروا مدينتهم في البر الاصلي وينتقلوا اولا الى جـزيرة قشم ثم الى جـزيـرة جيـرون « الاسم القديم لهرمز ».

ولا يوجد ادنى شك بأن تلك المملكة من مقرها في جزيرة هرمز التي احـالها الغنى التجاري من جزيرة جرداء خالية من كل علامات الحياة الى درة من درر المدائن في العصور الوسطى قد بسطت نفـوذها عـلى كل من البحـرين والحسا والقطيف فضلا عن سيادتها ونفوذها في الاجزاء الجنوبية من ساحل عمان وجزر الخليج الجنوبية.

لكن هـذه المملكة شهـدت في مـطالع القرن الخامس عشر صراعات مريرة على العرش كذلك الصراع الذي قام به سيف الدين مهـار ضـد والده تهمتن الثـالث فيروز شاه حيث ارغمه على التنازل عن العرش فترك ذلك ردود فعـل في الخليج بحيث انتفضت البحرين والاحساء على هرمز وتعذر عام ١٤١٧ «٨٢٠هـ» عـلى القوافل سلوك طريق البحرين ـ الحجاز «٦» كذلك ثار الأمير فخر الدين تورانشاه الثاني «حاكم ميناء قلهات العماني» ضد اخيه سيف الدين مهار ملك هرمز وذلك بدعم ومساندة من العرب الذين امـدوه بسفن بحرينية وخيول احسائية واموال من تجار عمان وقد دامت حرب الاخوين سجالا اربع سنوات ثم انتهت بانتصار تورانشاه.

ونحن مع الدكتور عبد اللطيف ناصر الحميدان «٧» في مقاله القيم عن نشأة الجبور متعلقا بالظروف التي ساعـدت الجبـور من بني عـامـر عـلى تـوسيـع

سلطانهم على البحرين والقطيف.. وهي ظروف تتلخص في انتشار الفوضى الغامرة التي عمت العراق وايران وديار بكر وشمالي سوريا والأناضول نتيجة الحروب المتواصلة فيما بين الدولة التيمورية ودولة قره قوينلو وما بين تينكما الدولتين ودولة قره قونيلو وما بين الاخيرة ودولة آق قونيلو ثم ما بين هذه وبين العثمانيين في بداية نشأتهم.. اضف الى ذلك الصراعات الداخلية على السلطة في داخل كيان كل واحدة من تلك الدول القبلية المتأخرة.. كل ذلك ادى بلا ريب الى ظهور فراغ في السلطة مما يمكن ان ينتفع به السكان المحليون في الاقاليم للخلاص من بطش العتاه المتقاتلين الأمر الذي اضعف الاوضاع الاقتصادية لمنطقة الخليج بعامة، ولجزئه الشمالي بشكل خاص.

الجبور يتوسعون على حساب هرمز

انتفع اجود بن زامل الجبري كثيرا بتضعضع احوال مملكة هرمز في الثلث الاخير من القرن الخامس عشر بسبب خلافها مع دولة الاق قونيلو في جنوب فارس فراح يركز نفوذه في الاحساء والبحرين حتى اذا ما توفى فخر الدين تورانشاه ملك هرمز جاءت الفرصة سعيا الى الاحسائيين ذلك بأن ابناء فخر الدين الأربعة مقصود وشهاب الدين وسلغور وياس تنازعوا على عرش أبيهم فالتجأ احدهم وهو سلغور الى زعيم الاحساء اجود بن زامل فوافق هذا شريطة ان يتنازل له سلغور نهائيا عن كل حق يدعيه في البحرين والقطيف فوافق سلغور مع تحفظ واحد وهو ان يترك له ملكية خاصة لبعض بساتين البحرين ووقع بذلك اتفاقا مكتوبا مع زعيم الجبور.

ولما استتب الأمر لسلغور في مملكة هرمز كان طبيعيا ان يتململ من عواقب ما ابرمه اضطرارا مع الجبور في صدد البحرين والقطيف فراح يتمحك بادعاء الحق في مقاسمة اجود بن زامل عوائد البلدين لكن اجود استمسك بالنص الحرفي للاتفاقية المكتوبة الأمر الذي ادى الى نشوب القتال بين هرمز والاحساء لكن ضغط الهرمزيين على الجبور كان محتملا وغير فعال لان هرمز كانت بدورها تعاني عقدة الخوف من دولة آق قونيلو التي كانت خلال الحقبة الاخيرة من القرن الخامس عشر تحت حكم رجلها القوي خليل بك موصللو، فلما زال خطر ذلك الرجل عنها لانشغاله بأخطار برية برزت له على حدوده الشرقية بدأت هرمز تشدد من حملاتها ضد القطيف والبحرين.

موقف البحرين بين الهرامزة والجبور

الواقع ان فشل الحملات التي شنها سلغور بقيادته شخصيا ضد البحرين والقطيف وكذلك الحملات التي وكل بقيادتها وزيره «ريس نور الدين» او الى ولده طورانشاه بن سلغور يدل في حد ذاته على ان البحرينيين آثروا الوقوف الى جانب اخوانهم من عرب القطيف ونجد ضد هرمز ذات الارتباطات الوثيقة بالبر الفارسي.

ولقد انتهت تلك الخلافات على كل حال الى مصالحة شاملة أشار لها المؤرخ البرتغالي دي باروس «٨» معتبرا اياها حلا وسطا وقد تضمنت استمرار الصلاحيات الادارية للجبور في البحرين على ان يتعهدوا بدفع بعض ايراداتها الى هرمز مع الاعتراف الاسمي بتبعيتها النهائية لمملكة الهرامزة. على ان هذه المعاهدة التي يبدو انها عقدت بنهاية عقد

الثمانينات من القرن الخامس عشر لم تكن تمثل سوى فترة مهادنة لصالح فريقين: احدهما كان يمثل طموحا قبليا قويا ويجمع تحت جناحه عواطف السكان العرب في سائر المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية وفي معظم جزر الخليج والثاني فريق الدولة التجارية البالغة الغنى والآخذة سبيلها الى الهرم والهزال.

ولقد اخذ كل فريق يعزز مركزه بالوسائل والمزايا المتاحة له فهرمز تستخدم المال والنفوذ والقوة البحرية، والجبور يستغلون مركزهم في البر الشرقي لشبه الجزيرة العربية ولا سيما في عمان حيث يستطيعون من هناك تهديد هرمز في أخطر المواقع الا وهو مخرج الخليج الجنوبي الذي تعول عليه هرمز للابقاء على وجودها نفسه.

وعلينا في هذا الصدد الأ ننسى الحروب التي كانت وقعت بين هرمز في بداية امرها وبين اهم مركزين تجاريين للعرب في الخليج خلال القرن الرابع عشر ألا وهما البحرين وجزيرة قيس وهي حروب تواصلت فيما يبدو حتى عام ١٣٢٠ للميلاد بتمكن قطب الدين شاه من الاستيلاء على قيس واخضاع البحرين «٩» وليس ذلك وحسب ولكن جزءا كبيرا من الساحل الجنوبي لعمان على الخليج ظل لفترة طويلة تابعا لمملكة هرمز.

ولقد يعجب البعض من تمكن مؤسسة سياسية محدودة الحجم في جزيرة بركانية ضئيلة وقاحلة كهرمز من مد نفوذها على كل تلك المناطق، ولكن هرمز لم تكن بدعا فمن قبلها كانت سائر المدن التجارية كقرطاجنة وتدمر والبتراء تمد نفوذها على مساحات شاسعة بفضل المال الذي يمكنها من تجييش الجيوش وتكثير الاتباع والموالين، وفي حالة هرمز فان المعابر البحرية والمحطات والجزر البحرية لها ما للحياة نفسها من أهمية، فلو انغلق المرور عبر مضيق هرمز بسبب وجود وضع معاد على أحد جانبي الخليج او كليهما فان ذلك معناه الموت المحقق لجزيرة هرمز، ومن هنا كان لابد على الأقل من تحييد ساحل عمان المعروف «بسير عمان» حتى نهايته في رأس مسندم وكذلك ضمان سلامة وأمن العبور من الجانب الايراني المواجه له. اما لزوم البحرين لهرمز فيكاد لا يقل اهمية عن ذلك فهي محطة الاتصال بشمالي الخليج، ووسيلة ضمان سلامة السفن الموقورة بالبضائع الهندية والصينية وغيرها مما يصدر عبر البصرة وتحمله القوافل البرية الى سواحل البحر المتوسط..

ولقد كان التنافس على النفوذ في سير عمان «الامارات العربية المتحدة اليوم» وفي البحرين أمرا أبديا فيما بين القبائل النجدية كالجبور والعوامر عموما وبني هاجر والدواسر والعجمان من ناحية والقبائل العربية القديمة الاستقرار على ساحل فارس المواجه والجزر مدعوم بطبيعة الحال من حكام المناطق الفارسية المتاخمة.. اما في عمان فأن ديمومة حالة التنافس بين الساحل والجبل ـ وكان يمثلهما في الفترة التي نحن بصددها النبهانيون والاباضيون على التوالي ـ قد افسح المجال لطموح اجود بن زامل الجبوري للتدخل في عمان وبسط نفوذه عليها.

لقد وقف الزعيم الاحسائي الى جانب الاباضيين ضد النبهانيين اصهار ملك هرمز، ولم يتردد عام ٨٩٣هـ « ١٤٨٧م » في ارسال قوات كبيرة بقيادة ابنه سيف لمساندة امام الاباضيين

المسمى عمـر بن الخـطاب الخـروصي وتمكينـه بالفعـل من طرد سليمـان بن سليمان النبهاني وذلك في مقابل امتيازات حصل عليها الجبوريون اضـافت كثيرا الى قوتهم وجعلت منهم الخصم الاساسي لملكة هرمز.

تقييم لموقف البحرين

وهناك حقيقة هـامة ينبغي ان تـظل ماثلة في الاذهان وهي انه ايا كانت قوة الجبور فهى قوة برية شأنها في ذلك حتى شأن الدولة السلفية الوهابية الاولى بعد ذلك بثلاثمائة سنة الأمر الذي يدعو الى التساؤل عن تباعد موقف البحـرين من هرمز واقترابه من الجبوريين علمـا بأن امكانات البحرين البحرية تجعلها في أمان من عدو داخلي على البر العربي خصوصا اذا كانت على تحالف مع ساحل عمـان ناهيك عن هرمز ايضا. ونحن لا نتردد في القطع بأن علاقات البحرين كانت اوثق بالجبوريين منها بالهرامزة علما بأن نفوذ الجبـور لم يستـطع ان يثبت نفســه في المواقع الساحلية الهامة كمينـاء مسقط وميناء خورفكان وميناء قلهات.

فلو قد شاءت البحرين ان تؤثر توطيد العلاقات مع هرمز لكان لها ذلك، ولكنها لم تفشل تاريخيا في ان تكون لهـا أوثق العلاقات بالبر الاحسائي طالما قـام فيه وضع سياسي معقول، واذا كان الفضل ما شهدت به الاعداء فان البرتغاليين لدى وصـولهم الى الخليـج اوائـل القـرن السادس عشر أشادوا في تقارير مرسلة الى لشبـونـة بـالسلطان مقـرن سلطان البحرين والاحساء والقـطيف وبسمعته الممتازة وازدهار مملكته، والواقع ان ذلك لا يضفى عليهم اى فضل ولكنها طريقة الاوربيـين المستعمـرين حيـال كـل من يعجزون عن الوصول اليه او يتهيبونـه بحـال من الأحـوال، فـأمـا الضعيف والمستسلم فلا قول لهم فيه الا ما يهين ويشين..

البرتغاليون في الشرق

اذا كان الانجليز قد عضوا بالنواجذ على الخليج العربي مدى قرن ونصف من الزمان من اجل حفـظ مواصـلاتهم مع الهنـد سليمة في الحـرب والسلام عـلى السـواء، جاعلين من المـزايا التجـارية وغيرها هـدفا اضـافيا الى جـانب ذلك، فـانهم قد جنبـوا انفسهم بذكـاء خطأ البرتغاليين القاتل وهو احتكـار كل شيء لانفسهم، واعتصـار كل فـائدة مـاديـة عاجلة مهما كـان أثر ذلك عـلى مستقبل علاقاتهم بالبلاد واهلها مظلما.

لقد وفد البرتغاليون الى الخليج كما يفد الطاعون ولم يكن حديثهم عن الدين والانتصـار للصليب الا ورقـة التـوت السـاترة لعـورات الطمع وروح النهب والسلب، والتخريب التي تملأ وجـودهم وربما لم تكن هناك أمة في أوربا قبل عهد الكشوف الجغرافية في القرن الخـامس عشر قد عانت من الفاقة نـظير ما كـان يعـانيه البـرتغاليـون في وطنهم القليـل الخيرات.

ولا يمكن نكران الوعي الفكري الذي اوجدته حركة العلم الاسلامي الزاهرة في «الاندلس» ولا القناعـات التي اشاعهـا المسلمون في سائر القارة الاوربيـة عن كروية الارض. وعن الفرص المتاحة للفكر البشري بالاستكشاف والسير في الأرض.

وترجع بداية الوعي البرتغالي الى عهد اميرهم المسمى هنري الملاح، «١٣٩٤ - ١٤٦٠» وهـو رجل عـاصر الانتصارات العثمانية الكاسحة في بر الاناضول والتي

كللهـا احتـلالهم القسـطنـطينيـة عـام ١٤٥٣م مسجلين حـدثا تـاريخيا انهى حيـاة الجناح الشـرقي للامبـراطوريـة الرومانية بعد الف سنة تقريبا من سقوط جناحهـا الغـربي وعـاصمتـه رومـا.

وبـالاضافـة الى التحدي الضخم الذي طرحـه هـذا الحـادث الجلل في وجـوه الاوربيين فهو قد يسر هجرة عدد ضخم من علماء البيزنطيين المتـأثرين بـالفكر والعلوم الاسلامية في المشرق مما ساعد على ايجاد منهج علمي في اوربا واكمـل مجهودات الجامعات الاسلامية في بالرمو بصقلية وفي قرطبه بأسبانيا.. ولعل من النتائج البالغة الخطورة لذلك الحادث انه كان مقدمة لانتصارات اخرى للعثمانيين افضت بـهم الى السـيـادة في العـراق وسـوريا ومصر وبـذلك اصبحت سائـر الطرق التجارية التقليدية الكبرى ضمن حيازة الاتراك ولم يعد لموانىء ايـطاليا الشمالية المشهورة كجنوه والبندقية تلك المكانة التي كانت تتمتع بها طوال العصر السابق لهذه الاحداث الضخمة.

لقد اصبحت اوربا بكـاملها تتحـرق شوقا لتحقيق وسيلة تخرج بها من طوق الاحتكـار التجاري الاسـلامي فلم يكن هناك سوى واحد من حلين اثنين: اولهما محاولة الانتصار عـلى الدولة العثمانيـة والثـاني ايجاد طريق آخـر للهنـد غـير الطريق التقليدية عبر البحر الأحمـر او الخليج، ولما كان الحل الاول متعذرا، فان الافكـار اتجهت للحل الثـاني وقد كـان البرتغاليون بدافع صلاتهم بالبحر وتنبه افكار ملوكهم لا سيما الفونسو الخـامس «١٤٤٣ ـ ١٤٨١» ودون جـوا الثـاني «١٤٨١ ـ ١٤٩٥» الى ضرورة اضطلاع البرتغال بدور ما في كسر طوق الاحتكار الاسلامي للخطوط التجـارية مـع الهند والشرق الاقصى ومعظم القارة الافريقية، وكـذلك لفقر بـلادهم وللحوافـز الدينية المتعصبة ضد المسلمين خلال ثمانمائـة سنـة من وجـودهم في شبـه الجـزيـرة الايبيرية «اسبانيا والبرتغال»، اقول قد كـان البرتغـاليون اول شعـوب القـارة الاوربية بحل معضلة الطريق الأخر الى الهنـد، ويجب علينا في هـذا الصـدد الا ننسى ان مثل تلك الخطوط ما كانت لتتوقع من شعوب الشمال الاوربي كـالانجليز والاسكندنافيين والهولنـديين مثـلا، لأن شعاع الفكر والحضارة الاسلامية انما كان تأثيره الغامر المباشر أشد ما يكون في حـوض البحر الابيض المتـوسط وبـين شعوبه.

ومـن الحق ايـضـا ان نـقـرر ان البرتغاليين كشعب جبلي متمرس بمشاق الحيـاة والفقـر قـد بـذلوا في مجـال الاستكشافات الجغرافية جهدا يستحق التنويه به.. صحيح انهم التزموا القرب من الساحل الغربي لافريقيا لدى دخولهم المحيـط الاطلسي الجنوبي الى ان تمكن بـارثلميو ديـاز من الطواف حول رأس الرجاء الصالح دون ان يدرك في البداية انـه كان يستـدير ليـدخل ميـاه المحيط الهندي.

وايما كان الحال فبعد عقد واحد من الزمان في عام ١٤٩٨ وصـل البرتغـالي فاسكو دي جاما الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح واذ ذاك فتحت صفحـة جديدة في تاريخ العالم ارتفع بهـا شأن اوربـا الغـربيـة، وتعـزز جـانب العلم والابحـاث العلميـة، وانتقـل احتكـار البضائع الشـرقية كـالتوابـل والحريـر لايدي الاوربيين، وأدت الثروات الهائلة الى قيـام الصنـاعـات وظهـور الثـورة الصناعية التي كانت حوافزها الاساسية

السباق المحموم لزيادة الانتاج وسهولة النقل والتصدير الى الشرق لزيادة ارباح المبيعات الضخمة من البضائع المنسوجة وغيرها.

وفي الوقت الذي انفتح فيه باب الثروة للبرتغاليين على مصراعيه فان زملاءهم الاسبان وجهوا اكبر هممهم صوب العالم الجديد حيث كانت عمليات النهب تملأ سفنهم بالنفائس والاطايب من بلدان كانت لها حضارات طمست بظهور اولئك الوافدين النهابين من اوربا.

التركيز ابتداء على الهند

عندما ادرك البرتغاليون حجم الثروات التي يمكن ان يؤمنها الاستيلاء على تجارة الشرق صحت عزيمتهم على احتلال المنافذ الحساسة للبحر الأحمر والخليج علاوة على محاولة الهيمنة على المراكز التجارية الهندية وقد عين فرنسيسكو دي ألميدا حاكما عاما للمستعمرات التي أنشأها البرتغاليون خلال سبع سنوات في جهات من الهند مثل جوا وكوشن، واسندت اليه ايضا مهام الاستيلاء على مراكز في كل من ملقا في الشرق وهرمز على مدخل الخليج وعدن على مدخل البحر الأحمر.

وعلى صرخات بعض امراء المسلمين في الهند من العدوان البرتغالي ولكل ما ظهر جليا من مخططات البرتغاليين التي جعلوا من جملتها الهجوم على الأماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز، تحركت عبر البحر الأحمر قوة بحرية اسلامية يرجح ان سفنها وبحارتها من سوريا ومصر بالرغم من كون القيادة تركية، وقد دارت معارك عنيفة ومطاردات شرسة بين هذه القوة الاسلامية واسطول البرتغال الحسن التصميم والتجهيز والمزود بمدفعية ثقيلة وقد انتهت الأمور بتشتيت القوة الاسلامية قبالة السواحل الهندية مما زاد في حرج الامراء المسلمين الهنود وضاعف من خطورة الاوضاع في الخليج والبحر الاحمر اضافة الى الكوارث البحرية بين سواحل افريقيا الشرقية والسواحل الهندية.

وفي الوقت الذي ركز فيه الميدا جهوده في جوا عاصمة البرتغاليين الشرقية ليؤثر تأثيرا سلبيا للغاية في الحركة القديمة لنقل الكميات الهائلة من البضائع من موانىء هندية هامة مثل كلكتا الى المخزن التجاري الاكبر في هرمز ليجري نقلها بعد ذلك برا وبحرا عن طريق البصره الى موانىء كجده والطور، نقول في ذلك الوقت عين عام ١٥٠٦ رجل من أشرس رجالات البرتغاليين واقواهم نفوذا الا وهو الفونسو دي البوكيرك ليتعامل مع عرب الخليج.

البرتغاليون في الخليج

قبل ان ندخل في اية تفاصيل عن همجية البرتغاليين في الخليج ومخططاتهم الفاشلة ضد حمى الاسلام المقدس في الحجاز يجب ان ننوه بأمر لعل اكثر مؤرخينا لم يولوه الاهمية والرعاية اللتين يستحقهما الا وهو الاتصالات البرتغالية التي سبقت التدخل المسلح.

فمن الثابت ان دون بيدرو البرتغالي شقيق هنري الملاح قد اوفد في بعثة الى البلاط العثماني واخرى الى البلاط الفارسي وذلك لاجراء اول عملية كشف واستجلاء للأمور كذلك يشير مؤلف دليل الخليج «١٠» الى ان دون جوا الثاني ملك البرتغال «١٤٨١ ـ ١٤٩٥» قد أرسل بعثات برتغالية متعددة في صدد البحث عن بلاد التوابل وذلك كمقدمة لما كان

يساور البرتغاليين من آمال في هذا الصدد. ومن هؤلاء جوا بيرس دي كوافيلوا الذي انفصل عن زملاء له في عدن ويمم شطر كلكتا وجوا وهرمز ثم عاد الى القاهرة مترافقا مع «ابراهام» البيجاوي الذي كان قد اوفد تحت رعاية ملكية في لشبونة الى كل من بغداد وفارس وهناك موفدون آخرون قصدوا عاصمة اثيوبيا.

ان اغلب الظن ان بعض اليهود المستعمرين من شبه جزيرة ايبيريا لعبوا دورا في نطاق مهام هذه البعثات الاستطلاعية، والواقع ان الفرصة التي كان يراد انتهازها هي الخلاف الحتمي الذي كان سينتج من توسع الدولة العثمانية على حدود فارس، وبذلك خطط الغربيون لجذب فارس الى صف الغرب في صراع محتمل مع المسلمين في الشرق بما فيهم العثمانيون.

وذلك هو الذي حصل لاحقا وما كان ممكنا ان يحصل في يوم او ليلة. ان الحلف الصفوي البرتغالي انما جاء نتيجة مساع قديمة حصل فيها تفاهم بين البرتغاليين وعناصر فارسية مختلفة وانه لمن أسف بالغ ان عمان التي كان لابد ان تتلقى الصدمة الاولى من لدن غاصب مقبل من سواحل افريقيا الشرقية لم تكن في وضع داخلي قوي لاستقبال الغزاة البرتغاليين بمقاومة جدية صادقة. فلقد اشرنا من قبل الى ظروف الخلافات الداخلية فيها وتدخل كل من هرمز والقطيف في شئونها، ولكنه يبدو ان الامامة العمانية كانت تعتبر مسئوليتها الأمنية مقصورة على مناطق الامامة الداخلية حيث ان ثغور الساحل كانت مرتبطة بهرمز، ويرى الدكتور سليمان محمد الغنام، «١١» ان سكوت الامامة عن كل ما حصل في مسقط وقريات وصحار وقلهات من فظائع البرتغاليين ناتج ايضا عن اليأس من امكان المواجهة مع البرتغاليين وهم بكل العنفوان الذي ظهروا به. على أنه يمكن ان يقال بحق أن الاوضاع السياسية والاجتماعية في عمان كانت قد بلغت من الضعف والهزال ما جعل السكوت عن جرائم البرتغاليين في السواحل مجرد تعبير عن حالة من التدهور والانحلال.. وهى أحوال ظلت تأخذ ابعادها الى ان افضت في بداية القرن التالي الى ثورة اليعاربة.

الاوضاع المتدهورة في الخليج

وقبل ان نتحدث عما وقع في عمان وغيرها نرى ان هناك ظاهرتين تلفتان النظر ولابد من أخذهما بعين الاعتبار في تقييم الثورة التي قامت لاحقا في البحرين ضد البرتغاليين.

فأما الحقيقة الاولى فهى ان شعوب المنطقة في حوض الخليج وشرقي افريقيا بالكامل كانوا في حالة متدهورة من سائر النواحي الاجتماعية والنفسية، وحسب المرء ان يقرأ في الرسائل الموجهة من شيوخ من افريقيا الشرقية والخليج وفيها من التعظيم والتفخيم لضباط البرتغاليين ومسئوليهم العسكريين ما تشمئز له النفس وتعافه.. لقد كانت هذه الرسائل تستغرق صفحتين احيانا فهم حماه البر والبحر وأمن الخائف وقاهرو الاعداء .. الى آخر ذلك. وفيما يلي بعض مقدمات تلك الرسائل.« ١٢ ».

الى حضرة الملك الافخر والمولاء الاعظم سلطان دون منويل والى البر والبحر معطي الاحسان في كل مكان مالك ممالك الدنيا مظفر الاعداء ومملكته من

الشرق الى الغرب عظيم السياسة وقديم الفراسة ذو الجود صاحب السيف والقلم باسط اللطف واتم العدالة خلد الله سلطنته وايد ملكه دايما ابدا ثم نعرض على حضرتك الشريفة بأن عام الأول أتانا كتابكم الشريف وفرحنا به.. غاية الفرح والابتهاج ونعلمك يا سيدي..

****

الحمد لواهب العقل هذه عريضة المحبة والمودة من بندر برتكال بندر كننوز الى الحضرة الاخوية ذو المكارم الحميدة دون واسلو دغامه اعظم كبار البرتكال المعين على زم المحبة ونوايب زمان عهده وزير الميرانتي اعلا الله شأنه وقرر دوامه اما بعد المحبة الخالصة والموده الصافية نعرض على شانك الشريف بأن المكتوب المرسل بالمحبة قد وصل الى حضرت كولترى وقراه كلاما بعد كلاما وفرح به فرحا كثيرا على ما راء فيه من المحبة ودعي لكم بطول العمر وزياد دولتك وهو كل يوم يذكرك لأجل ازدياد محبتك وانا لأجل محبتي لك كتبت كل هذا الكتاب سرا وما احد عرف.

وثانيا: ان الاسر الحاكمة في المنطقة هبطت بالمستوى الخلقي للمسلم الى دون الحد الادنى الذي يمكن للمرء ان يتصور تراجع المسلم اليه، ففي خلال رحلة للبوكيرك مثلا الى هرمز سابقة لوفاته بسنة واحدة - أي عام ١٥١٥ للميلاد استقبل سفيرا موفدا من قبل الشاه اسماعيل الصفوي من طهران فكان من جملة الاقتراحات التي طرحها للمفاوضات « ١٣ ».

اولا : ان تقدم البرتغال بعض سفنها لايران كي تتمكن الاخيرة من غزو البحرين والقطيف.

ثانيا : ان يقوم تحالف بين فارس والبرتغال ضد تركيا.

ولسوف نرى لاحقا ان احدا على المدى الطويل لم ينج من خطيئة التحالف مع البرتغاليين لغرض اواخر كما حصل من متسلم البصره في استعدائه السفن البرتغالية ضد السواحل القطرية بعد فترة طويلة جدا من وجود البرتغاليين وانكشاف كل مساوئهم.

بدأ البوكيرك لدى وصوله سواحل عمان «١٥٠٧» م بتدمير سائر مراكب العمانيين التي صادفها في طريقه أيا كان نوعها. وكان من بينها تجمع من حوالي عشرين سفينة عند جزائر كوريا موريا على ساحل عمان على بحر العرب، وعندما وصل الى قلهات قيل انه استقبل بحفاوة حالت بينه وبين ايذاء المدينة ومنها تحرك البرتغاليون الى قريات فاحتلوها عنوة.

وبينما يذكر كاتب مقال « البرتغاليون في جزر البحرين » «١٤» ان مسقط رفضت التسليم لذلك فتح البرتغاليون عليها نيران مدافعهم البحرية الى ان استسلمت يقول-لوريمير ان البوكيرك لم يجد في مسقط اية معارضة حين بلغها « ١٥ » لكن قوات كبيرة بدأت في التجمع على الساحل بنوايا عدائية واضحة الأمر الذي حمل البوكيرك على النزول الى البر وضرب المدينة واشعال النار فيها وفي مينائها.

ويقول صاحب مقال الجمعية الملكية الاسبق ان البرتغاليين عمدوا الى رؤساء الاحياء والقبائل وسائر شخصيات

مسقط فاحتجزوهم واهانـوهم وقطعـوا انوفهم وآذانهم ثم انقضوا على المدينـة فنهبـوها وبعـد ان مـلأوا سفنهم بمـا احتملوه قاموا باحراق المدينة ثم انطلقوا ليكرروا نفس هذه العمليـات في سلسلة من المدن والقرى العمانية الساحلية.

ويـؤكـد ويلسـون هـذه الحقـائق المأساوية « ١٦ » موردا نفس الاوصاف عن الحرق والنهب والتمثيل بالاحياء في صحار وخورفكان وكل مكان معمور مر به اولئك البرابـره الى ان وصلوا الى رأس مسندم ليتوجهـوا من بعد الى هـرمز في العدوة المقابلة من الخليج.

وانه لمن أسف بالغ حقا ان وقوع تلك الجرائم البربرية في مدن المسلمين لم يكن كافيا لردع المتهارشين على زعامات المدن والقرى الداخلية في عمـان عن مواصلة نشاطهم المخرب ضد بعضهم بعضا.

البرتغاليون وهرمز ـ البحرين تقاتل الغزاة

هنالك على وجه التحقيق غموض اكيد فيما يتعلق بحقيقة ما حصل لدى اقتراب البرتغاليين من جزيرة هرمـز فالمصـادر مجمعة على ان العرب الذين اصبحوا على يقـين مما يفعله البـرتغاليـون في الذين يستسلمون لهم كما حصل على امتـداد الساحل العماني من نهب واحراق وتمثيل بالاحياء وسبي للاولاد والنساء كانوا قد قرروا ان يدافعوا عن هرمز ليس فقط لان السيادة فيها لحاكم عربي وحسب ولكنها لأنها بالنسبة لهم جميعاً هي حاضرتهم الاولى وهي محـج التجـار والبضـائـع والسفن من كل مكان، وهي بالنسبة لهم تعني حياة ميسورة ورزقا جاريا.

ان المصـادر الغـربيـة التي تنفـرد بالحديث عن سائر وقائع الغزو البرتغالي تنـاقض نفسها حـين تشير الى المـلاينة الواضحـة في سلوك البرتغـاليين حيـال هرمز في الوقت الذي تؤكد فيه وقوع قتال غاية في الضراوة.. فهل كان البرتغاليون يبقـون عـلى شيء لو كـتب لهـم النصر واقتحموا الجزيـرة عنوة..؟ هـل كانـوا يغضـون عن وضع يـدهم على جمـارك هرمز؟.. الواقع ان حقيقة ما حصل ولا سيمـا بالنسبـة لنتائـج القتال يجب ان يكـون مغـايـرا كـل المغـايـرة للروايـة البرتغالية التي أخذ بها سائر المؤرخين الغربيين.

ان الحقيقة تقتضينا مناقشة مختلف صيغ الروايات التي بين أيدينا عما جرى بين البرتغاليين وهرمز التي اعدت دفاعا مستميتا كما تقـدم للاشتراك معهـا في المعركة اسطول بحريني ومتطوعون من كـرمان ومن الجـزر والسواحـل بحيث اصبح عددهم اضعاف عدد المهـاجمين كمـا ان تحصينـات الجـزيـرة والسفن المـدافعـة عنهـا عـلى طول سـواحلهـا واستـدارتها لا ريب لقنت البـرتغاليـين درسا لم يكونوا يتوقعونه وهو الذي اعاد لهم الصـواب وحـطم من عجـرفتـهم وتصرفاتهم الجبانة الدنيئة ضد السكان المسالمين باسم الدين وهو براء منهم.

ولنبـدأ بـروايـة لوريمـير يقـول هـذا الرجل بكل الروح الصليبية التي يظهر بها كلما عالج موقفا تاريخيا ينطوي على شجاعة من المسلمين ودفاع عن مبادئهم مـا يـلي..«١٧» واخيـرا وصـل «يعني البوكيرك» الى هرمز.. الى الملك او الشيخ الذي كانت كل القرى بساحل عمان التي مر بها (يعني البوكيرك) خاضعة له وتدفع له الجزية ، وكـان اسمه سيف الدين ، وقـد

رفض ذلك الشيخ ان يستسلم فبادر البوكيرك الى الهجوم بأسطوله الصغير على الاسطول الضخم الذى كان يتولى الدفاع عن الجزيرة وبعض سفنه هندية ، واستطاع البوكيرك ان يحرز نصرا سهلا وتاما .

وفي سبتمبر ١٥٠٧ وقع البوكيرك معاهدة مع الشيخ سيف الدين أصبح هذا بمقتضاها تابعا للتاج البرتغالي بل انه ايضا وبعد شهر رفع على قصره علما عليه شارة الصليب، وبدأ البرتغاليون ينشئون لهم قوة اطلقوا عليها «جيش النصر» وفيما بعد رفض الشيخ سيف الدين رسالة من الشاه اسماعيل ملك فارس تطالبه بالولاء وفاقا لاوامر البوكيرك الذي ارسل بدوره مع جواب سيف الدين رسالة مفعمة بالعجرفة لتسليمها للشاه.

هذه هي الصيغة التي اصطنعها صاحب دليل الخليج ونلاحظ عليها ما يلي:

أولا : ان البوكيرك الذي احرز نصرا سهلا كان من العفة بحيث لم ينهب الجزيرة رغم كل اهرائها الملأى بأثمن البضائع العالمية بكميات هائلة، ورغم الثراء الفاحش في قصورها.. والجواهر والذهب مع نسائها.

ثانيا : اما السفن الهندية التي يتحدث عنها لوريمير فهي سفن لبعض امراء المسلمين الهنود الذين كانوا يتحرقون شوقا للجهاد ضد البرتغاليين في اي مكان في الدنيا بعدما بلوا ما بلوه من غدرهم وهم فيما بعد كما سنرى استنجدوا بتركيا واستقبلوا بعض سفنها الحربية التي وصلت اليهم استقبالات حاشدة.

ثالثا : يحاول لوريمير جهده ان يخفي معظم قسمات الصورة التي يريدها ان تعكس اسباب فشل البرتغاليين فيلمح الى دور الشاه عباس ملمحا كما رأينا الى ان البرتغاليين الذين مكنهم الشاه عباس مما لم يكونوا قادرين بقوتهم على الوصول له اخذوا يديرون له ظهر المجن في موضوع هرمز.. ولو شاء لوريمير ان يتكلم حسبما قرأ في مصادره لاستطاع ان يقول ان القتال كان في غير صالح البرتغاليين لكن الشاه عباس تدخل في صالح اصدقائه البرتغاليين ونكاية في عرب الخليج وتخوفا من أنباء التقدم العثماني الذي كان ينذر باحتلال العراق والتقدم جنوبا الى مناطق الخلافة الاسلامية السابقة.

لكن هناك رواية اوضح واقرب الى المنطق من رواية لوريمير وهي رواية ويلسون صاحب الكتاب المعروف عن الخليج(١٨)، وفيما يلي اقدم الجزء الهام من تلك الرواية ليلاحظ القارىء مسافة البعد بينها وبين رواية لوريمير.

«ومن رأس مسندم مضى الاسطول البرتغالي الى هرمز مباشرة، وهي كانت عاصمة سائر الثغور والاقاليم التي اشرنا من قبل لها.. والقى البوكيرك مراسيه قبالة الجزيرة.. وقد كان البرتغاليون في البداية في خشية وتردد لضخامة وطبيعة الواجب الذي كان عليهم الاضطلاع به» لقد امكن لرؤساء الاسطول البرتغالي ان يشاهدوا عن كثب عظمة المدينة ووفرة الرجال والفرسان المتجمعين على سائر الساحل، والسفن العديدة الرابضة في المراسي والمشحونة بالرجال والسلاح.. وقد اصيب البرتغاليون بخيبة امل وأسى بالغين وتقدموا نحو البوكيرك ليصارحوه ويحذروه من مغبة ما كان مقدما عليه، لان تلك الحاضرة لم تكن كغيرها من المدن والقرى التي دمروها».

ثم يمضي ويلسون ليقول: لقد كان ملك هرمز قد تلقى معلومات عن البرتغاليين قبل دنوهم من بلده وأعد للأمر عدته وهو هنا يروي عن فاريا دي سوسا البرتغالي قوله «حينما وصل البوكيرك الى هناك كان سيف الدين يافعا يناهز الثانية عشرة من عمره

وانما كان يتولى ادارة البلاد الخوجا عطار وهو رجل حاذق وشجاع، بادر حينما سمع بأفعال البوكيرك في عمان باقامة الاستعدادات وتسخير سائر السفن بالدفاع عن البلد كما استأجر جنودا من المقاطعات المجاورة من العرب والفرس وغيرهم، وبذلك اصبح في المدينة من المدافعين عنها ثلاثون الف جندي محارب بينهم اربعة آلاف فارسي من المشهود لهم برمي السهام كما كان في الميناء من بين أربعة آلاف سفينة وقارب ستون سفينة ضخمة عليها الفان وخمسمائة مقاتل. وهذه الارقام هي التي يوردها فاريا دي سوسا لكن ويلسون يضيف بأن خوجا عطار نصب على سفن الميناء الكبيرة مدافع ضخمة كما سلح قوارب خفر الساحل السريعة بمدافع صغيرة وشحنها برجال من رماة السهام.

ثم يعترف ويلسون بقيام مفاوضات بين الطرفين.. لكنها مفاوضات انتهت الى الفشل فقام البوكيرك على الاثر بهجوم «لم يكن سهلا بحال من الاحوال» فأحرز انتصارا بحريا كاملا.

وينقل ويلسون عن سوسا هذه الفقرة مما سمي بالتعليقات ـ وربما كان المقصود بها شروحا على متن تلك المذكرات وفيها يروي هذا الحوار «لقد سمع ملك هرمز رسالتكم ويرغب ان يعرف منكم ماذا تريدون، وماذا تنشدون في هذا المرفأ فأجاب الفونسو البوكيرك بقوله «قل لملك هرمز ان الملك دون عمانويل ملك البرتغال وسيد الهند يرغب في صداقته كثيرا فأرسلني الى هذا المرفأ لأخدمه بأسطوله، فاذا كان الملك راغبا في ان يكون تابعا له يدفع له الجزية فسوف اعمل سلاما معه وأخدمه في كل شيء يأمرني به ضد اعدائه، واذا كان غير راغب دعه يعلم انني حتما سأدمر كل اسطوله الذي يضع ثقته فيه وآخذ مدينته عنوة بالسلاح».

فاذا فرضنا جدلا ان ذلك هو الذي اجاب به الفونسو البوكيرك فمتى يمكن لذلك السفاح ان يقول انه جاء لخدمة امير شرقي ؟ ومتى كان يضع نفسه تحت امر احد من قادة المناطق المحلية ؟ انه حتى لو كانت رواية هذا الحوار صحيحة لا غبار عليها فانها تدل دلالة مبطنة على ان البرتغاليين ذاقوا مرارة خسائر ضخمة قبل ان تتحسن لغتهم. ثم ما قيمة التهديد بعد وقوع قتال مرير كما يروي ويلسون نفسه نقلا عن سوسا ؟

ما الذي منع البوكيرك من تدمير هرمز كما فعل في مسقط وغيرها ؟ هل يمكن ان يكون ذلك غير العجز الفاضح ؟

ان الحلقة المفقودة في هذه القصة هي بلا شك الدور الذي لعبه الشاه الصفوي..

وان من مثيرات الشك في مجمل الرواية البرتغالية مثلا الخلاف الشديد بين الشاه اسماعيل الصفوي وبين شيخ هرمز حول من يأخذ ما سمي بالجزية.. أهو ملك فارس ؟ أم الفونسو البوكيرك ؟.. وهناك كلام كثير في الرواية البرتغالية مفعم بالكبرياء والعجرفة لكنه لا يخفي عجز البرتغاليين عن تسيير الامور وفق ما كانوا يتمنون في هرمز، ويبدو منه جليا ان البوكيرك والشاه الصفوي كانا على مسافة بعد واضحة في تقييمها لسائر الامور، فالشاه فيما يبدو هو الذي اقنع الهرامزة بأن يردوا كيد البرتغاليين بقبول صلح معهم، وربما يكون قد تكلم عن مزايا مالية امام البوكيرك فيحمسه على المهادنة التي كانت في صالحه اي صالح البوكيرك، وكذلك ليشعره ان هرمز وغيرها انما تطيع ملك فارس وتحارب وتسالم برأيه.. لكن الشاه الصفوي وجد البرتغاليين قد احسنوا التفاهم مع الهرامزة ولذلك فلم يقروا دفع شيء للصفويين !!

وهناك موضوع يثير الشك في ادعاءات

البرتغاليين الا وهو التمرد العلني الذي قام به قباطنة السفن ممن اشتركوا في محاولة لاغتيال البوكيرك، الامر الذي اضطره ـ أي البوكيرك ـ على رأي سوسا «ان يتخلى مؤقتا عن الفتح !!»[١٩].

دور البحرين

ولا يشير اي من ويلسون او لوريمير الى دور البحرين في تلك المعمعة بالرغم من العلاقة الخاصة بين هرمز والبحرين غير ان كاتب مقال الجمعية الملكية الاسيوية[٢٠] يقرر ان البحرين كانت تابعة لهرمز، حيث ان الاخيرة كانت السوق الرئيسية لتصريف لآلىء البحرين.

يقول المقال المذكور ما ترجمته بالحرف «لقد ارسلت البحرين اسطولا عليه امداد من الرجال والمؤن الى ميدان المعركة في هرمز، لكن البرتغاليين تحصنوا لهذه القوة وكمنوا لها في مياه جزيرة قشم وقد تمكنوا بعد قتال مرير من اغراق السفن البحرينية. وعلى الاثر دار قتال بحري عنيف جدا بين المهاجمين والمدافعين عن هرمز وانتصر البرتغاليون رغم ضآلة عددهم وامكن التوصل لنصوص معاهدة بين هرمز والبرتغاليين سمح بموجبها للبرتغاليين ببناء قلعة لهم ولكن البوكيرك اضطر لمغادرة تلك الاراضي والتوجه عائدا الى الهند بسبب تمرد ضباطه عليه.

الخليج والبحرين في ظل الحلف الصفوي البرتغالي

ان الاضطراب في الروايات عن حقيقة ما جرى في هرمز، وعن تفاصيل الوفاق الثلاثي بين الشاه والبوكيرك وخوجا عطار الذي انهى حالة القتال في هرمز وبالتالي أوجد وضعا غير مريح لضباط الاسطول البرتغالي فضلا عما تكبدوه من اصابات وخسائر لم يتعودوا عليها من قبل حين سقطت عمان بأيديهم نتيجة المباغتة وعنصر العنف في الهجوم وتفرق كلمة العمانيين.. وقد أدى ذلك كله الى تمرد الاسطول وانسحاب البوكيرك الى الهند، وان كان أحد لا يستطيع ان يجزم بمنشأ التناقضات الغريبة في الموقف.. كأن تبنى قلعة برتغالية في هرمز وتكف ايديهم في الوقت نفسه عن ادارة الجمارك او ابتزاز الغنائم..

وعلى كل حال فان تقديم مكافأة مالية من هرمز لجهة ما كان دائما امرا واردا فهي بلد صغير اكثر مما تجيئه اهميته من اقتداره المالي، وقد كان النزاع على من يستحق هذه المكافأة أهو الشاه اسماعيل ام البوكيرك، يؤدي الى خلاف خطير لكنه يبدو ان الشاه كان حيال التهديد التركي له مستعدا للتنازل للبرتغاليين عن كل شيء وسنرى ان الحلف الصفوي البرتغالي قد استمر طوال خمسين سنة، وان ممن قاسوا بسببه كانت البحرين بالرغم من علاقاتها الوثيقة بدولة الجبور وترحيبها بجهود العثمانيين ضد غطرسة البرتغاليين.

ومن الغريب ان تتناقض مصالح السكان العرب وتختلف بالتالي مواقفهم من العدو البرتغالي الواغل، ذلك بأن السكان العرب لمدينة البصرة التي وقعت تحت النفوذ الصفوي اعتبارا من عام ٩١٤ للهجرة الموافق ١٥٠٨ ميلادية[٢١] وحتى عام ٩٥٣ هـ (١٥٤٦) حين دخلها العثمانيون ظلوا موادعين نتيجة الرفاه الحاصل من حالة السلام الناشئة نتيجة معاهدة الصداقة المعقودة رسميا بين البرتغاليين والصفويين[٢٢].

غير ان البصرة الواقعة في اقصى شمال الخليج لم تكن تصطلي بنار البرتغاليين على المستوى الذي خبره الناس في جنوبي الخليج وعلى اية حال فان موقف الحكم الصفوي الموالي للبرتغاليين كان عنصرا

ضاغطا في البصرة بحيث لم يحصل فيها اي تجاوب مع ثورة البحرين.

لقد أضحى واضحا بعد معركة جالديران (٩٢٠ هـ - ١٥١٤ م) والتي انتصر فيها الاتراك على الفرس فدان لهم نصف العراق الشمالي بما فيه العاصمة بغداد، ان الصفويين لن يدخروا أي جهد يستطيعونه للسير مع البرتغاليين قلبا وقالبا. كذلك فان دولة العثمانيين الاتراك اصبحت تدرك مدى مسئولياتها حيال دفع الخطر البرتغالي ليس عن اماكن الاسلام المقدسة وحسب، ولكن ايضا عن طرق التجارة الاسلامية في كل من المحيط الهندي والبحر الاحمر والخليج.

ولا يمكن لنا ان نتصور وقوع هزيمة جالديران بالصفويين دون ان يترك ذلك رد فعل في الخليج، ولو قد فرضنا المستحيل ووضعنا على مستوى واحد تهديد العثمانيين والبرتغاليين للمنطقة بأسرها فان خطر البرتغاليين كان خطرا واقعا فيما كان التهديد العثماني امرا بعيدا حيث كان نصف العراق الجنوبي ما يزال بأيدي الصفويين كما ذكرت.. وليس هناك شك في ان عرب الساحل الشرقي للجزيرة العربية كانوا يعتبرون العثمانيين منقذين لهم من بطش جبابرة الصليبيين واذا كان المسلمون في الهند يعتبرونهم كذلك افلا تكون عواطف عرب الجزيرة معهم ؟

وأيما كان الحال فان جرأة البحرينيين في مقاومة البرتغاليين والانقضاض عليهم لا يمكن الا ان تكون اكتسبت تشجيعا بأخبار الانتصارات العثمانية على البرتغاليين..

ويستدل من دراسة اوامر الجيش العثماني في القرن السادس عشر[٢٣] بأن تأخر الاتراك بعض الشيء في التقدم جنوبا الى البصرة في العراق انما كان مرده التركيز الملح على عدن اذ كان دخول البرتغاليين الى عدن فالبحر الاحمر يعني تهديدا خطيرا للاماكن المقدسة الاسلامية، وهو ما كان البرتغاليون يصرحون به.

ولا شك ان ارتحال البوكيرك من منطقة هرمز عائدا الى الهند وانهماكه بعض الوقت في الاشكالات الناتجة عن تضارب صلاحياته مع صلاحيات دي الميدا في جوا والتي دامت الى عام ١٥٠٩ حين فصل فيها[٢٤] ملك البرتغال بتسمية البوكيرك نائبا له في الهند اقول ان ذلك الارتحال على الصورة التي تم بها، وتلك المشكلات وما دار من جدل بشأنها أدت الى الاضرار بالسمعة التي كان يتمتع بها البرتغاليون كقوة شديدة المراس وليس يعلم يقينا طبيعة الخلاف الذي اشتد بين الميدا نائب الملك حتى ١٥٠٩ وبين خصمه وخلفه في المنصب الفونسو البوكيرك ولكن يبدو ان تمرد القباطنة ومسألة الصلح في هرمز والخصام بين حكام البرتغال مترابطة وتدور على محور واحد هو استئثار البوكيرك بالرأي واعتداده بنفسه اعتدادا ملؤه الغرور والعجرفة، وليس مستبعدا ان بعض القباطنة كانوا يعملون بتوجيه من دي الميدا، ويبدو ان انصار البوكيرك في لشبونة كانوا هم الفريق الاقوى بحيث اتخذت حكومة البرتغال قرارا جاء مباغتا لألميدا وهو تسليمه مقاليد منصبه لخصمه، ويذكر ويلسون[٢٥] ان الميدا رفض اول الامر تسليم المنصب الى البوكيرك لكنه اذعن لاحقا.. وفي هذه الفترة اشتدت المقاومة للبرتغاليين في الهند نفسها كما ظهر على غير توقع اسطول عثماني لمعاونة الامراء المسلمين، وقد افضى تطور الامور الى خسران البرتغاليين جوا كما خسروا هرمز ولكن قوة الاسطول البرتغالي مكنته من سرعة استرداد جوا. كذلك فان الحملة البحرية العثمانية بقيادة سليمان باشا[٢٦] لم تكن اكثر من تعبير عاطفي لتطمين الهنود المسلمين واثارة حميتهم لمواصلة مقاومتهم للبرتغاليين.

الحقد الصليبي البرتغالي يؤخر الهجوم على البحرين والبصرة

كــان واضـحــا من اضــطراب امــور البـرتغاليــين في الهند حــين يركـزون عــلى الخليج، وفي الخليج حين يركزون على الهند ان ما حققوه بالدعاية والعنف كان في الواقع اضخم من امكاناتهم.

وبعد استرداد انفاسهم باستعادة جوا عاودوا التفكير في حل جذري يخلصهم من الفكرة السائدة في شعوب الشرق الاسلامي بأن دولة الخلافة قادمة للقضاء على كل ما صنع البرتغاليون ورتبوا في عالم المسلمين سواء أكان ذلك في الهند أم في شرقي افريقيا ام في الخليج.

ورغم الاخبار المقلقة التي كانت ترد الى البوكيرك عن زوال سائر الاثار الحاصلة عن غزوته البحرية لجنوبي الخليج، الا انه كان على اعتقاد راسـخ بأن الطريقـة المثلى هي القضاء على الاتراك من مكان تـدفقهم الى مسرح الصراع عن طريق البحر الاحمر.

وقــد كتب رســالة الى لشبــونــة عــام ١٥١٢(٢٧) يقول فيها «عــلى انني أؤكد ان اعظم المخاطر على جوا انمــا هو الاعتقــاد الراسخ المتداول بأن الاتراك قادمون، وهذا امر يثير اكبر الاخطار في الهند ويسبب بلبلة عـظيمــة للسكــان المحليــين الذين دخلوا النصرانية، وانني ازاء هذه الظاهرة المؤذية أود ان ارفع لجلالتكم بكل احترام بأننا ما لم ندخل البحر الاحمر فنؤكد للمــذعورين في الهند بأن لا وجود لمن يخافونهم من الترك فانه لا امل في استقرار السلام بين رعــايا جلالتكم في الهند.

وبعد ارسال هذه الرسالة بفترة وجيزة توجه البوكيرك مع اسطوله كله من جوا الى الغرب يريد عدن فمكة على انه بسبب عامل المناخ لم يستطع ان يحقق اكثــر من ازالة قلعة سوقطرة بعد ان تقــرر عدم التمســك بــذلك الموقــع، ولكي لا تقع القلعــة في يــد الاعداء، كما ان البوكيرك تلقى دفعة مالية من هرمز.

وفي فبراير ١٥١٣ وصلت توجيهات من ملك لشبونة الى البوكيرك بأن يتقدم بكامل اسطوله الى عدن عسى ان يندفع بعد ذلك عبر مضيق باب المندب الى البحر الاحمر. وكان مع البوكيرك عشرون سفينة كبيرة تحمــل الفا وسبعمائة جندي بـرتغالي وثمــانمائــة مالاباري وكناري قاصدة رأس غردقة ومن هناك توجه الركب الى عدن. لكن الهجوم على عدن انتهى الى فشل ذريع ذلك بأن اقصى ما استطاع البرتغاليون ان يفعلوه هو احراق بعض المراكب التي كانت راسيــة في الميناء بعد ان اتموا نهبها لكنهم وجدوا التقدم بعد جزيرة قمران عملية مكلفة جدا فعادوا الى موقع ديو وحاولوا التحرش مرة اخرى بعدن ففشلوا في احداث اي شيء في المدينة.

لقد اصيبت سياسة التطرف والمجازفات العدوانية الخيالية، والتصــورات الحاقــدة بــامكان الوصــول الى مكة والاعتــداء على أقدس مقدسات الاسلام بضـربة شــديدة بالفشل الذي صادفته حملة البوكيرك هذه التي استطاع ان يحمل لشبونة على الموافقة عليهــا وان يسكت صــوت البــرتغــاليــين المعتدلين الذين كانوا يرون خط آخر مختلفا جدا للعلاقــات البرتغــالية في الشــرق، ولا يؤمنون بسياسة بناء القلاع والاعتماد على البطش بعدما تبين لهم ان العالم الاسلامي اكثر سعة، واخصب بمواطن المقاومــة مما كانوا يتصورون. والواقع انــه لولا الموقف الغريب لدولة الصفويــين في فارس لمــا كان البرتغاليون جديرين بأن يحققــوا شيئا الى جــانب ما حققــوه في الصدمــة الاولى التي صدموا بها قرى الساحل العماني ومدنه.

وعاد البوكيــرك الى جوا ليستقبــل فيها سفيرا للشاه الصفوي اسماعيل جاء يحاول

توسيع نطاق التحالف الفارسي البرتغالي، وكان واضحا ان الرياح في هرمز باتت تهب في غير الجهة التي تلائم البرتغاليين فقرر البوكيرك ان يرسل تحت قيادة ابن اخيه بيرو حملة الى مدخل الخليج، وقد وفق هذا في نهب بعض المراكب التجارية العربية قرب سوقطرة لكنه فشل بعد وصوله الى هرمز في مايو ١٥١٤ حيث رفض شيخ الجزيرة تسليم القلعة للبرتغاليين أو دفع ما يدعونه عليه من متأخرات الجزية، وذلك ببساطة لانه لا يدين بالولاء لغير الشاه اسماعيل الصفوي.. وفي خريف ١٥١٤ عاد بيرو ليخبر عمه بسائر تفاصيل رحلته الفاشلة.

ان هذه الاحداث لا تترك مجالا للشك في ان الشاه الصفوي كان يتخذ من هرمز ورقة رابحة للتفاوض مع البرتغاليين لرفع مستوى الحلف فيما بينهما ضد الاتراك والعرب من سكان المنطقة، وذلك في وقت كان فيه البوكيرك يتحرق غيظا لتحقيق نتائج رنانة يمكن ان يرضي بها لشبونة ويسكت هناك حجج المنتقدين لسياسته.

أول اقتراب برتغالي من البحرين

ويبدو ان البحرين كغنيمة محتملة يستدر بها رضا المسئولين في لشبونة، لا سيما حيال العجز الواضح عن اقتحام البحر الاحمر وتنفيذ التهديدات الفارغة ضد البيت الحرام بمكة، كانت لاول مرة تثير اهتماما عمليا من البوكيرك، ولهذا فقد تجول ابن اخيه بيرو(٢٨) في المناطق الشمالية من الخليج بحيث كان اول برتغالي يزور البحرين زيارة سلمية لم يرافقها قتال من اي نوع ولا تركت من بعدها حامية في تلك الجزيرة... واغلب الظن ان الرجل ربما اقترب ببعض سفنه من الجزيرة مستكشفا لكنه لم ينزل فيها كما ترد الاشارة الى ذلك لاحقا.

زيارة اخرى للتمويه على ملك البرتغال

ولدى عودة بيرو وتقديمه التقرير المرتقب الى عمه كان لا بد للبوكيرك من فعل شيء ما ليعوض به فشل وعوده الفضفاضة باقتحام البحر الاحمر في الوقت الذي كان العثمانيون فيه يعدون العدة لدخول مصر والتقدم العاجل بكل القوى البحرية السورية والمصرية والعثمانية، وسائر القوى الاسلامية الاخرى على سواحل البحر الاحمر للحيلولة دون تجرؤ البرتغاليين على حمى الاسلام وقدس أقداسه

ويقول كاتب مقال مجلة الجمعية الملكية إياه ان صوت النذير دوى في مصر سابقا لدخول العثمانيين لها عام ١٥١٧ فقد كانت الاستغاثات ترد الى المماليك من امراء الهند المسلمين كما كان لمصر علاقات تجارية متينة مع دول المسلمين المتعاقبة في الدكن وحيدر آبار وغيرهما. وبالفعل فان المصريين لم يفرطوا في اليقظة التامة حيال اي هجوم برتغالي في البحر الاحمر، فضلا عن ارسالهم قوة الى سواحل الهند لمعاونة المسلمين هناك ضد طغيان البرتغاليين وكل الذي استطاع البوكيرك ان يحققه بعد رجوع ابن اخيه هو خروجه الى هرمز في الوقت الذي كان يشيع فيه ان وجهته هي ميناء مخا كما انه لم يتورع ان يكتب الى الدون عمانوئيل ملك البرتغال رسالة يتهدد فيها بتنفيذ خطة تجمع قوة البرتغال الى قوة الحبشة لتضطلع بتدمير مكة.

ومع انه تقدم بوعد اكيد بأنه قاصد الى البحر الاحمر لتحطيم سلطان المسلمين فيه ولاحتلال ميناء مصوع ليكون قاعدة ومركز قلعة برتغالية.. الا انه مضى بسفنه الست والعشرين وعليها الفان ومئتا جندي برتغالي ومالاباري الى هرمز.

ويتضح من الرواية البرتغالية ان رأيين متناقضين كانا يتصارعان في الجزيرة احدهما يدعو للانضواء تحت سلطة الصفويين، وليكن بعد ذلك ما يكون، والرأي الاخر كان اكثر استقلالية وكان يقر البقاء على مسافة من مطامع كل من الصفويين والبرتغاليين ما دام السبيل الى ذلك ممكنا.

ويبدو انه بنتيجة تلك الخلافات وجد شيخ هرمز سيف الدين نفسه معتقلا وتحت رحمة من عرف باسم الريس «حامد»، وان الاحوال الامنية والتجارية في هرمز كانت تعاني اضطرابا شديدا.

ويدعي لوريمر(٢٩) ان هذا الزعيم المستجد في هرمز كان من دعاة الفرس في الجزيرة وانه وصل الى مركزه بالعنف والغدر لكن مركزه كان مهددا وضعيفا.

وما ان وصل البوكيرك الى مياه هرمز حتى فتح مدافع سفنه دفعة واحدة لارهاب الناس وبالفعل فان الريس حامد فهم الرسالة جيدا فبادر باطلاق سراح سيف الدين ملك الجزيرة الشرعي الذي بدأ مفاوضات مستفيضة مع البرتغاليين انتهت الى اتفاق شامل يجعله تحت حمايتهم، وبذلك ضرب البوكيرك عرض الحائط برضا الشاه الصفوي او سخطه مدركا ان ذلك الرجل المهدد تهديدا مباشرا من العثمانيين كان لا يجد له وسيلة سوى اللجوء الى البرتغاليين طالما ظل يريد مواصلة ملكه.

الشاه اسماعيل الصفوي على اعتاب المعتدين

ويذكر ارنولد ان الشاه اسماعيل ارسل مندوبا للتفاوض مع البرتغاليين على اساس الامر الواقع الجديد في هرمز، وقد قبل في مقابل موقفه الذليل وفقدان امله الاخير في السيطرة على هرمز الحسناء الغنية وعدا من البوكيرك بأن يساعده في غزو البحرين والقطيف وان يعاونه ايضا في قمع ثورة كانت تستعر ضده من سكان مكران الذين ذاقوا الويل من تعصبه الذميم(٣٠) وفيما يلي ترجمة حرفية لما يذكره ويلسون عن تلك الشروط:

(أ) على البرتغاليين ان يوفروا سفنا للشاه اسماعيل ليغزو بها البحرين والقطيف.

(ب) وعليهم ان يقدموا مساعدات حسية للشاه لاخماد ثورة مكران.

(جـ) على البرتغاليين الدخول في تحالف مع الشاه ضد الاتراك العثمانيين، وهكذا قنع البوكيرك بغنيمة هرمز وعين عليها بيرو ابن اخيه نائبا له واستخذى له شاه الصفويين في مقابل وعود بأن ينصروه على العرب والاتراك.

وليس من شك في ان البوكيرك احس بالمرض وهو يعود الى الهند خالي الوفاض من مجرد محاولة الهجوم على مضايق البحر الاحمر، وقد جاء موته في ديسمبر بنهاية نفس العام ١٥١٥ مخرجا له من حرج بالغ نتيجة فشله في تحقيق تعهداته لملك لشبونة.

ويعتبر ويلسون قدرة البوكيرك على التغلب على معارضي خططه من البرتغاليين اشارة نجاح له لكنه يرى ان البوكيرك ايضا وضع بيده بداية انهيار امبراطورية البرتغاليين التي ما كان لها ان تستمر وما قامت على غير البطش وابتلاع حقوق الغير، ونقض العهود.

المسرح السياسي في حوض الخليج لدى احتلال البحرين

لقد بات واضحا لدى وفاة الفونسو البوكيرك ان محاولات البرتغاليين لاقتحام البحر الاحمر قد باءت بالفشل، كما انه كان واضحا بنفس القدر ان المعارك البرية المكلفة في الارواح والاموال بين العثمانيين والفرس لا بد ان تنتهي الى حسم نهائي قبل ان يصبح الاتراك خطرا على البرتغاليين في الخليج، وفي الوقت نفسه فان الجبور في الاحساء والبحرين قد اثبتوا ايام مقرن بن زامل انهم كانوا مؤهلين ليصبحوا قوة ملحوظة لولا ان الخلاف دب بين مقرن واخويه «مما أدى بهم الى الضعف وزوال الملك»[٣١] كذلك فان الوضع في البصرة حين آل الامر الى من سمي بسلطان الشرق، الشيخ راشد بن مغامس بن صقر سلطان البصرة والاحساء والقطيف كان وضعا غامضا مفتوحا لمن يستطيع ان يثبت جدارته من ابناء القبائل، ذلك بأن الوضع الحربي بين الاتراك والفرس كان يجعل من قيام ادارة حازمة في البصرة لأي من الدولتين امرا صعبا، كذلك فان غارات البرتغاليين أدت الى انتهاك قوة الشيخ مقرن بن زامل. وهنا اورد ما يقوله الانصاري ايضا في وضع الجبور بعد تعرضهم لعدوان البرتغاليين واطماع سلطان الشرق راشد بن مغامس.

يقول[٣٢] «وكانت ولاية ابن مغامس على الشرق عام احدى (يريد واحد) وثلاثين وتسعمائة للهجرة، فاستقبل بالبصرة الى ان استعان به بنوجبر (مقرن واخوانه) لضعف حالهم فقوى عليهم وأخذ منهم الحسا والقطيف وأعمالها **وذلك لما استولى الاعداء الافرنج المخذولون على بلادهم وقتلوا سلطانهم الشيخ مقرن بن زامل بن حسين الجبري في سنة سبع وعشرين وتسعمائة**».

ومعنى هذا **اولا** ان حياة مقرن الجبوري انتهت الى كارثة لدى هجوم البرتغاليين على البحرين (١٥٢٢)م = ٩٢٧ هـ.

وثانيا انهم استنجدوا لدى كارثتهم بالرجل المتنفذ في البصرة فما كان منه الا ان انجدهم وحل محلهم..

والواقع ان الذي حصل بالضبط كما سنشرح لاحقا بالتفصيل هو انتقاص من سائر العرب في هرمز والبحرين والقطيف ضد محاولة البرتغاليين الاستيلاء على المراكز الجمركية ومباشرة حكم استعبادي لسائر ممتلكات العرب والجبوريين من هرمز الى القطيف.

موقف الصفويين ؟

ومن الواضح ان الملوك الصفويين قد وجدوا فى تقدم العثمانيين على حدودهم فى المناطق الشمالية بكاملها شاملا ذلك مناطق ديار بكر وأرضروم والموصل ، هما كافيا لهم ، وحيث انهم لا يملكون اية قوة بحرية ، وان البرتغاليين قلبوا لهم ظهر المجن فى هرمز فقد اكتفوا كما ذكرنا آنفا بوعود برتغالية بأن يساعدوهم ضد العثمانيين وفيما كانوا يحلمون به من انتزاع بعض الاقاليم العربية فى الخليج من الجبوريين كالبحرين والاحساء ..

لقد كان السلطان سليم الأول يتقدم بثبات مصمما على ضرب المذهب الشيعى ورجاله ويقال انه أوعز [٣٣] سرا بمذابح ضد الشيعة فى الممتلكات العثمانية بلغ ضحاياها اربعين ألفا ، وقد استطاع الشاه اسماعيل ان ينجو من الموت بأعجوبة بعد هزيمته المنكرة امام السلطان سليم فى معركة جالديران وعلى الأثر اصبحت كردستان وديار بكر ضمن مملكة العثمانيين الذين آثروا على التغلغل فى قلب ايران أن يركزوا على ضم مصر حيث استطاعوا عام ١٥١٧ أن يستولوا ليس على مصر وحدها ولكن على شعارات الخلافة العباسية بما فيها بردة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث تنازل آخر مدع عباسى للخلافة للاتراك عما يدعيه .

وفى عام ١٥٢٤ وبعد وفاة الشاه اسماعيل تولى مكانه الشاه طاهماسب (١٥٢٤ ـ ١٥٧٦) وعمره عشر سنوات وكان تحت رحمة جماعة متنافسة من شيوخ القبائل يتآمر بعضهم على بعض من أجل مغانم النفوذ وفى الوقت نفسه كانت القبائل تهدد الحدود الشرقية الفارسية تهديدا جديا حيث استطاعت قبائل الاوزيك الاستيلاء على هرات .

ومالبث السلطان سليمان التركى ان شن حربا على فارس فاقتحم جيشه جبال زاغروس واحتل بغداد ثم عاود الهجوم على فارس واحتل تبريز وقلعة وان ولم تتوقف الأعمال القتالية بين الدولتين الا عام ١٥٥٥ حين عقد صلح اتاح ضمان طريق الحج للحجاج الايرانيين وايما كان الحال فالمهم ان فارس كانت أضعف من ان تتدخل فى سير الأحوال السياسية والعسكرية فى الخليج .. حيث نرى المواجهة اولا بين العرب والبرتغاليين ثم تاليا بين العثمانيين والبرتغاليين معظم القرن السادس عشر .

احتلال البحرين ـ وثورة الجمارك

لقد رأينا كيف أن البرتغاليين ايام البوكيرك اقتصروا على تركيز نفوذهم فى هرمز تاركين مختارين أو غير مختارين التعرض للعلاقات الداخلية لهرمز واحلافها أو اتباعها فى البحرين والاحساء . ولكنهم أرادوا لاحقا أن يهيمنوا على سائر السياسات التجارية فى الخليج ، وفى نطاق احتكارهم للسلع والطرق التجارية أرادوا ان تكون لهم كلمة الحسم فى شئون الصادرات والواردات وأن يضعوا ايديهم على سائر الشئون الجمركية فى هرمز والبحرين والقطيف . فى عام ١٥٢٢ م أعلن لوبو سواريز نائب الملك البرتغالى الذى خلف البوكيرك فى جوا والذى كانت الشئون الاقتصادية المحضة هى موضع اهتمامه الأول انه قد عين موظفين برتغاليين لضبط سائر الشئون الجمركية فى هرمز والبحرين (وذلك يعنى القطيف ايضا) وفى صحار والقريات بعمان ، وقد وقع هذا الخبر وقع الصاعقة على سائر العرب ورؤسائهم من الجبوريين ..

ولاشك بأن الحاميات البرتغالية المحلية لم تكن ندا لعرب الخليج الذين تولى زعماء الجبور قيادتهم وهنا أود أن أقدم ترجمة حرفية لمقال مجلة الجمعية الملكية لاسيا الوسطى (٣٤)

الفتح البرتغالي للبحرين تم عام ١٥٢١

يستند مقال الجمعية الملكية الذى نحن بصدده الى معلومات البرتغاليين المباشرة عن أحداث الخليج ، وهو يجعل بداية الشرارة فى البحرين عام ١٥٢١ وليس عام ١٥٢٢ كما يعتقد لوريمير (٣٥) . ويقول كاتب المقال انه عندما طلب البرتغاليون من تابعهم حاكم هرمز أو شيخها بان يعجل بدفع الجزية السنوية التى كان تم الاتفاق عليها عام ١٥١٥ مع البوكيرك تذرع الشيخ بأن سبب تأخره فى الدفع عائد الى ان الشيخ مقرن (حاكم الاحساء) قد اصطدم معه بسبب البحرين والقطيف حيث اصبح يدعى تبعيتهما له مباشرة وعندها اقترح الحاكم البرتغالى بهرمز دييجو لوبيز سيكوييرا ان يقدم مساعدة لحاكم هرمز على شكل حملة بحرية تنزل فى البحرين وتنتزع الجزية من سكانها . وبالفعل فقد عقد لواء الحملة لانطونيو كوريه ابن أخ الحاكم ووضع تحت امرته (٤٠٠) جندى برتغالى صعدوا فى سبع سفن كبيرة وحوالى ثلاثة آلاف من العرب فى مراكب صغيرة بلغت ألفى مركب ، وقد تحرك هذا الحشد الضخم من هرمز فى اليوم الخامس عشر من يونيو ـ حزيران ، ولكن سوء الأحوال الجوية أدى الى تفريق سفن الحملة بحيث انه حين وصل انطونيو كوريه الى البحرين لم يجد حوله سوى مائتين وخمسين جنديا برتغاليا وعددا قليلا من جنود هرمز العرب تحت قيادة الرئيس زرافه (شرف الدين)

استعدادات البحرين ومقتل زعيم الجبور مقرن

وقد تبين ان المدافعين العرب بقيادة الشيخ مقرن الجبورى قد أحكموا استعداداتهم فبنوا سدودا كبيرة كما حفروا خنادق عميقة حسبما يتطلب الحال على امتداد الساحل وكان بين المدافعين ثلاثمائة فارس عربى وحوالى اربعمائة من رماة النبال وجيش من المشاة يبلغ احد عشر الفا مجهزين بأنواع منوعة من الأسلحة وكان فى بعض الحوائط المبنية على الساحل قطع مدفعية وكان بين ضباطه رجال شجعان لكن مشكلتهم انهم لم تكن لهم أية خبرة سابقة فى حرب مع الاوروبيين تعتمد المدفعية البحرية ويرتدى جنودها دروعا واقية وبدأ البرتغاليون الهجوم ، وكان على رأسه القائد انطونيو كوريه ومعه مائة وسبعون من رجاله ومن خلفه اخوه على رأس خمسين برتغاليا آخر اما الريس زرافه (شرف الدين) فكان منتحيا جانبا كاحتياطى للجانب البرتغالى .

وقد خاض البرتغاليون المياه الضحلة وهاجموا التحصينات العربية التى وقف مقرن وجماعته يدافعون عنها دفاعا مستميتا ، وكان الحر بالغ الشدة بحيث اضطر الفريقان ساعة الظهيرة للتوقف عن القتال حيث كان مما يشبه المستحيل الوقوف تحت سياط الشمس اللاسعة .

وفى المساء عاود البرتغاليون الهجوم وقد أصيب الشيخ مقرن بطلق نارى فى فخذه الامر الذى بعث اليأس فى نفوس رجاله بحيث بدأوا ييأسون ويستسلمون ، وقد قتل وجرح منهم جمع غفير ، وفى ساعة العتمة كان البرتغاليون قد حققوا انتصارا كاملا وبدأوا منذ ذلك اليوم من منتصف يونيو ١٥٢١ احتلالهم جزر البحرين .

وقد علم الريس زرافة (شرف الدين) ان الشيخ مقرن توفى بعد بضعة ايام من اصابته وان جثمانه كان يجرى نقله الى الاحساء لدفنه ، فسارع واعترض السفينة التى تقل الجثمان ووضع يده عليه فقطع رأس القتيل المتوفى وحمله معه الى هرمز بحيث كان ذلك دليله لنوال اذن من ملك البرتغال بوضع رأس ملك على سترته الحربية ، كما أضيف لاسمه لقب « بحريم » .

ويلاحظ كاتب هذا المقال أن رواية سقوط البحرين لا تتوفر الا من الجانب البرتغالى وأن بعض ما جاء فيها قد لا يكون صحيحا على الاطلاق ، وأيما كانت الأحوال فان جرح الشيخ الاحسائى مقرن كان له وقع الصاعقة على رجاله مما أفقدهم روحهم المعنوية وجعلهم يخسرون معركتهم بغير ضرورة .

ثورة الأهالي على البرتغاليين

وفى العام التالى ١٥٢٢ تمكن العرب بقيادة ملك هرمز من اعلان ثورة عارمة على البرتغاليين فى كل مكان من الخليج وذلك فى ليلة واحدة بالذات حيث اندلعت اعمال العنف فى هرمز والبحرين ومسقط وصحار وقد حوصرت حامية البرتغاليين فى قلعة هرمز ولكن نجدات برتغالية سرعان ما وصلت لها من مسقط حيث كان البرتغاليون يضعون احتياطيا من جنودهم ، وقد أمكن لهم فك الطوق عن القلعة ، ولما رأى شيخ هرمز ان الثورة لم تنجح فى عمان انتقل على الفور الى جزيرة قشم حيث لاقى منيته قتلا هناك . وقد خلفه ابنه البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة والذى حمل من البرتغاليين على عقد معاهدة جديدة معهم عمقت نفوذهم الى ابعد مما كان متغلغلا وذلك عام ١٥٢٣ .

نجاح الثورة في البحرين عام ١٥٢٢

وعلى العكس مما حصل فى عمان وهرمز فقد نجحت الثورة فى البحرين ذلك بأن الشعب العربى هناك كان يحتمل ضغينة هائلة ضد تصرفات البرتغاليين ومخططاتهم وكذلك ما قاموا به خلال سنة واحدة من بدء احتلالهم للبحرين . وقد تولى الثورة فى الليلة الموعودة لها شيخ البحرين عندئذ حسين بن سعيد والذى قاد حملة كانت مفاجأة تامة لقلعة البرتغاليين وقد تم القبض على حاكم الجزيرة البرتغالى وشنق على الفور على شجرة نخل كما طرد الباقون على قيد الحياة من جنوده .

عندئذ تغيرت لهجة البرتغاليين فى اتصالاتهم بالبحرين وأمكن بعد فترة هدأت فيها الخواطر ترتيب اتفاق مع البرتغاليين اقروا بموجبه صفة الشيخ حسين كحاكم عربى على البحرين مع موافقته فى المقابل على استخدام برتغالى يدعى دى منزيس كمساعد ومستشار له . وبعبارة اخرى يمكن القول ان البرتغاليين استردوا سيادتهم على البحرين ولكن بأسلوب سلمى .

الثورة تتجدد في البحرين بنجاح عام ١٥٢٩

يستطيع المرء أن يتصور بسهولة عرضية الحياة تحت النفوذ البرتغالى ، ذلك بأن البرتغاليين اذا ما لجأوا للسياسة واللين فذلك دخول على طباعهم بما ليس فيها ، كما ان الهم الأساسى لضباطهم البحريين كان دائما الكسب الشخصى من ناحية الجاه فى لشبونة أو المال الممكن ابتزازه فى الشرق . يضاف الى ذلك ان حب العسف والتدمير وروح القتل والقسوة اصبحت شيئا من صلب السلوك البرتغالى . لقد كان من جملة

ضحايا النجدة البحرية البرتغالية من الهند مدينة صحار العمانية التى دمرت تدميرا تاما فيما كان ذلك الاسطول يتوجه الى هرمز فى صدد الاحداث التى انتهت بمصرع شيخ هرمز فى جزيرة قشم .

من جراء ذلك كان امرا طبيعيا أن تتجدد الثورات كرد فعل لشراسة البرتغاليين . ويبدو ان هؤلاء لم يتذوقوا سلوك رجل يدعى شرف الدين فى بلاط شيخ هرمز الصبى فقام البرتغالى لوبوفاز [٣٦] باستدعاء سفن من الهند استخدمها بشراسة بالغة فى ابتزاز الأموال من السكان العرب .

وظل البرتغاليون يحقدون على الرئيس شرف الدين الى ان قام مونودى كونوا حاكم المستعمرات البرتغالية الهندية بزيارة لهرمز فنفى شرف الدين منها لبتداء الى البرتغال . وعلى الاثر قامت فى البحرين عام ١٥٢٩ ثورة عارمة ضد البرتغاليين وكان يحكمها فى تلك السنة نائب لشيخ هرمز اتهمه البرتغاليون بالاثراء الفاحش فنفوه الى البرتغال ، وراحوا يطالبون سكان هرمز بضرائب أعلى من ذى قبل الأمر الذى جعل هرمز تحاول نقل بعض ذلك الضغط الى البحرين التى رفضت التجاوب مع ذلك الطلب .

فى تلك الاثناء كان نائب الملك البرتغالى فى جوا هو نونو داكنها الذى عمد الى تعيين تافرز داسوسا أميرالا للبحرية وذلك بقصد الشروع فى هجوم على البحرين لكن داسوسا كان غير متحمس لتلك الحملة وقد استطاع اقناع نائب الملك بان يعين بدلا منه سيمون داكنها أخ نائب الملك نفسه . وظل الأخير ينتظر نجدات من البرتغال قبل ان توجه الى هرمز ومن هناك خرجت خمس سفن حربية كبرى عليها اربعمائة برتغالى تتبعها بعض السفن المحلية ولكن موجوداتهم من الذخائر كانت محدودة .

توجهت الحملة فى سبتمبر من عام ١٥٢٩ أى فى أشد ايام العام حرارة ورطوبة وأقل شهور السنة فى الخليج مواتاة للصحة ، وقد انفق من بالحملة نصف ذخيرتهم فى اطلاق مدافع تحية لجزيرة البحرين يقصد بها ايضا الارهاب النفسى وكان شيخ البحرين قد رفع على برج حصنه علمين احدهما ابيض والآخر أحمر كأنما يقول انه جاهز للسلام ان شاءه البرتغاليون وللحرب اذا اختاروا الحرب وكذلك كان تصميم البرتغاليين الذين ظلوا ثلاثة ايام يقذفون حمم مدفعيتهم على حوائط الحصن الى ان نفدت ذخيرتهم . فى تلك الاثناء تقدم شيخ البحرين العربى بعروض صلح مشروطة لكن البرتغاليين ركبوا رؤوسهم لئلا يفوتوا على أنفسهم فرصة النهب ولهذا رفضوا العروض العربية . وارسلت سفينة الى هرمز لاحضار نجدات من الذخيرة وقد احتاجت الى اربعة عشر يوما قبل ان تظهر ثانية فى مياه البحرين ببعض الذخيرة . وفى تلك الاثناء دبت الحمى بين جنود البرتغال والجنود الهرامزة الذين معهم على حد سواء وقد انتهت مؤونتهم فصاروا يستجدون الطعام من السكان العرب الذين لم يمنعوه عنهم وهذه صفة من التسامح التى عرف بها المسلمون وتفوقوا بها على سائر الامم . وقد تبين ان خمسة وثلاثين جنديا برتغاليا كانوا هم كل القادرين على الاسهام فى نشاط عسكرى لذلك قرروا الانسحاب ، وقد جرى سحب المرضى الى سيف البحر بالحبال التى جعلت فى ارجلهم حتى اذا ما وصلوا للقوارب حملهم ملاحون عرب والقوا بهم فيها وقد ساءت حالة الجنود البرتغاليين وهم على ظهر سفنهم فى طريق عودتهم حتى مات اكثرهم بمن فيهم قائد الحملة سيمون داكنها الذى قيل ان الفشل كان سبب موته غيظا .

بداية انحلال البرتغاليين وحادثة حرق البصرة

لم يكن قد مر الآن سوى اثنتين وثلاثين سنة على اكتشاف البرتغالى فاسكو دى جاما لرأس الرجاء الصالح حين بدت الامارات الأولى التى يعتبرها أهل الحصافة من الناس علامات انحطاط وشيك رغم المظاهر الخارجية الموحية بخلاف ذلك . لقد كان البرتغاليون حقا حتى هذا الوقت هم سادة البحر غير المنازعين فى الخليج وكان لهم ما يدعونه من «غابات من السفن البرتغالية» وكانوا يحاولون أن يوجدوا جيلا جديدا من ذرية جنودهم وبحارتهم الذين أكثروا من الزواج من النساء الهنديات والشرقيات عموما لكى يخرج من ذلك الجيل البحارة والملاحون والجنود البحريون اللازمون للحفاظ على مجد البرتغال الدموى . لكن بوادر انحلال قوة البرتغال كانت قد بدأت تظهر لكل ذى بصر فالحكام البرتغاليون خرجوا عن عادات البساطة وقوة الأسر وبدأوا يؤثرون الرفاهية والبذخ يسكنون افخم البيوت ويركنون الى الفرق الكبير بين خبرة واستبسال جنودهم وتفوق سلاحهم على الشعوب التى اصبحت لهم الكلمة العليا عليهم . لكن التجارب اثبتت ان غياب الرعاة عن القطيع لا يمكن ان يمر دون حدوث حوادث سيئة ، واضافة الى ذلك فان اعتماد البرتغاليين المستمر فى الذخائر والتعزيزات البشرية والمادية على البرتغال نفسها بكل بعدها عن مسرح اعمالهم كان نقطة ضعف بارزة فى تنظيمهم .

لكن أهم من ذلك كله أن قباطنتهم البحريين وكبار مسئوليهم تحولوا من حكام الى تجار وهذه غلطة تحاشاها الانجليز فيما بعد تحاشيا تاما ولاشك بان ذلك اضعف كثيرا من فاعلية البرتغاليين بحيث وجدوا انفسهم فى منتصف القرن السادس عشر يواجهون تهديدا خطيرا ومؤثرا من الاتراك العثمانيين الذين واصلوا تحسين امكاناتهم البحرية منذ تبين لهم مدى اهمية القوى البحرية منذ اصطدامهم الأول بالبرتغاليين اوائل القرن السادس عشر .

اهمية دخول العثمانيين مصر عام ١٥١٧

لقد كانت المصالح التجارية لدولة المماليك فى مصر ومدينة البندقية مصالح مشتركة ومتماثلة ، ولاشك انها اصيبت بأضرار فادحة منذ هيمن البرتغاليون على الطريق التجارى التقليدى وحولوه من الهند الى رأس الرجاء الصالح ولم تتأخر مصر فى العمل الفعال لصيانة البحر الأحمر من الخطر الكبير المحدق وذلك سابقا لدخول السلطان سليم اليها عام ١٥١٧ ، وقد سارع الاتراك الى ضم اليمن وبالتالى أصبحت هناك كلمة واحدة وقوة واحدة تجاه البرتغاليين فى محاولاتهم ضد البحر الأحمر والاسلام فى افريقية بل ومقدسات الاسلام فى الحجاز .

وفى الوقت نفسه فان الاتراك الذين احتلوا بغداد لاحقا فى عهد سليمان القانونى عام ١٥٣٤ بدأوا يمدون نفوذهم جنوبا باتجاه الخليج وكما ورد سابقا فان انشغالهم فى مجابهات اخرى مع الدولة الفارسية فى ديار بكر وأرضروم جعل سرعة تقدمهم الى مناطق القبائل العربية فى جنوب العراق بطيئا ومحدودا .

البحرين والاحساء تتصلان بالعثمانيين

تشير المصادر البرتغالية الى أن ملك الاحساء وشيخ البحرين فى عهد كان فيه كل منهما مستقلا قد بعثا عام ١٥٣٤ وهو نفس عام سقوط بغداد بأيدى الاتراك بوفد ليقدم التهانى والمودة لولى العهد العثمانى وان لم يلتزما باية تبعية للدولة العثمانية وكان ذلك الاتصال هو أول اتصال بين البحرين وتركيا ويرجع الاتراك ادعاءهم بالسيادة على البحرين الى هذا الحادث كأقدم اساس قانونى لذلك الادعاء .

غير أن بعض المصادر الغربية ونحن لا نملك سواها مع الأسف فى هذا الموضوع يبرز موقفا مختلفا عن هذا لحاكم البصرة (٣٧) الذى لا يعرف ان كان فارسيا أم عربيا فى تلك الفترة التى كان لفارس نفوذ مباشر على جنوب العراق وتقول هذه الرواية ان ذلك الحاكم قد اتصل بالبرتغاليين على أساس ان يعاونوه ضد شيخ عدو له فى جواره من جنوبى العراق (لعل الاشارة تعنى شيخا من القبائل العربية الكبرى فى جنوب العراق) . ويقول لوريمير نقلا عن مصادر برتغالية لا يذكرها ان ملشبور تافرز دى سوزا ارسل فعلا تجريدة عسكرية بحرية للتعاون مع الحاكم المذكور فيما يسميه (ضرب التجارة التركية) ولكن الشيخ المذكور لم يف بوعوده فانتقم دى سوزا باحراق مدينتين وهو فى طريق العودة .

حملة بيري رئيسى (بيرى بك)

فوجىء البرتغاليون لاحقا لسقوط بغداد بأيدى العثمانيين بقليل بظهور اسطول تركى بقيادة البحار التركى المشهور بير رئيسى يهاجم مسقط ويستولى عليها ثم يتحول بعد ذلك الى هرمز لكنه لا يصادف نجاحا مماثلا وقد توجه بعد ذلك الى البصرة فيما يدعى البرتغاليون انهم شرعوا فى مطاردته ، وكان مع بير رئيسى حاكم مسقط البرتغالى ويقال ان هذا الرجل قد قدم النصح للاميرال التركى بأن يغادر البصرة بما حصل عليه من الغنائم قبل ان يضطر لمواجهة صعبة مع الاسطول البرتغالى الذى حشد قواه كلها وقد تمكن بير رئيسى من الخروج بثلاث سفن موفورة بالغنائم والاسلاب التى ظفر بها من البرتغاليين فى عمان لكن احدى سفنه غرقت قبالة البحرين وعليها فيما يقال كنز ثمين ، وقد سخط السلطان على تصرفات رئيسى غير المسئولة فأجريت له محاكمة فى اسطنبول فحكم عليه بالاعدام كما وضعت الدولة يدها على ثروة هائلة كانت تحت تصرفه .

وقد بدا واضحا (٣٨) انه كان من بين اعتبارات العثمانيين فى التقدم ناحية البصرة هو الحيلولة دون نجاح الخطط المشتركة للفرس والبرتغاليين وكذلك استعادة السيطرة على طرق التجارة المهمة الممتدة من البصرة الى حلب ذلك بأن المناطق التى تعودت الافادة العميمة من تجارة التوابل والحرير والبضائع الشرقية سواء فى سوريا ام فى المدن الايطالية ذات المصالح المشتركة مع بلدان الشرق الأدنى الاسلامية ، قد تضررت ضررا بالغا من النشاط البرتغالى ، ولعل هذا هو الذى يفسر ضخامة الحملة البحرية التى قادها سليمان باشا والى مصر عام ١٥٣٨ وتوجهت الى ديو فى ولاية كجرات فى الهند .

اشتداد الهجمات العثمانية

وفى خلال الثلث الثانى من القرن السادس عشر نجد جهدا مشتركا يمكن تسميته بالمجهود الاسلامى فى وجه الغزاة

البرتغاليين ، فهناك اتصالات مستمرة وقوية بين عرب الاحساء والبحرين وبين العثمانيين الذين تقدموا الى ساحل الخليج خلال هذه الفترة عن طريق البصرة وشط العرب من ناحية وعن طريق الاحساء التى بعثت تستنجد بهم ضد عسف البرتغاليين فما كان منهم الا ان تجاوبوا وارسلوا حامية عسكرية الى القطيف .

ومن المؤسف ان روح الارتجال وحسن النية كان يسود التحركات العثمانية منذ بداية امرها ، ولو كان هناك برنامج واضح لتجميع موارد الثغور البحرية الاسلامية وتنسيق جهدها فى اعداد اسطول كبير مشترك وكذلك تطبيق برنامج تدريبى صارم لاعمال الجهاد البحرى اذن لكانت النتيجة جديرة ان تكون فى صالح القوى الاسلامية ولأمكن طرد البرتغاليين واغلاق مضيق هرمز فى وجوههم حتى برغم التعاطف والتحالف اللذين كانوا يجدونهما لدى الصفويين عموما . ولو حصل ذلك لتغير تاريخ الشرق كله .

وشىء آخر يعاب على الاتراك وهو ظاهرة أخرى من ظاهرات الانفعال العاطفى المقترن بالأعمال الارتجالية ففى تجاوبهم السريع مع دعوة النجدة التى وصلتهم من عرب الاحساء لم يقم الاتراك بدراسات دقيقة عن احتياجات جنودهم من سائر النواحى وقضايا اسكانهم وعلاقتهم بالسكان البدو وموضوعات التحصين المستمر للسواحل المعرضة لمدافع البرتغاليين .. وقد أدى ذلك كله الى تمكن البرتغاليين من تدمير قلعة القطيف (٣٩) بل وتدمير البصرة ايضا كما سيرد ذلك مفصلا فى هذا الفصل . وكانت البصرة قد اصبحت عثمانية اعتبارا من عام ١٥٤٦ (٩٥٣ هجرية) وكان ذلك أمرا مرتقبا بعد انتصارات العثمانيين فى شمال ووسط العراق .

ويمكن القول عموما ان وصول العثمانيين للبصرة كان ايذانا بدخول الصراع التركى البرتغالى مرحلة حادة جدا وان تلك المرحلة قد فجرت عواطف دينية ومشاعر قوية ، كما يمكن القول بأن التدهور المستمر فى الاوضاع السياسية والاقتصادية لفارس فى هذه الفترة عائد الى الموقف السياسى للصفويين كان يصادم مشاعر الأمة فى حوض الخليج ، ويثير أمام الفرد المسلم متناقضات لا يستطيع ان يتعايش معها بسهولة ، ولا شك ان مصير مثل هذا الوضع هو ضعف السلطة المركزية المؤدى الى انهيار محتوم . ومهما قيل فى موقف الاتراك والبرتغاليين فان الجانب المسلم كان الأقرب دوما الى الاسماح والتفاهم ما دام ذلك ممكنا .

ففى عام ١٥٤٧ وهو ثانى عام لدخول العثمانيين البصرة أرسل والى المدينة محمد باشا تاجرا يدعى الحاج فياض الى الحاكم البرتغالى فى هرمز مناويل دى ليما يعرض قيام علاقات تجارية ودية بين الجانبين لصالح الجميع (٤٠) ، ويظهر ان ممثلا للبرتغاليين وجد فى البصرة لمدة تقارب الثلاثة أشهر لكن تجاوب البرتغاليين ظل مترددا وعدوانيا فى معظم الوقت حيث انهم كانوا يرون أن أية فائدة مادية تعود على غيرهم وكأنما هى انتزاع من جيوبهم التى كانت تحوى كل مال الخليج ومزاياه .

وحيث فشلت وسائل التفاهم فقد بات القتال محتوما، ومع ان العثمانيين قاموا بسلسلة من المحاولات العسكرية البحرية وبعضها بالغ العنف ، لكن المهم هو النتيجة النهائية ، وهذه لم تكن فى صالح الاسلام عموما .

ويمكن اعتبار الفترة من ١٥٥٠ ـ ١٥٦٢ فترة قتال ونزاع وحملات تركية متوالية

انتهت بمحاولات أخرى لمفاوضات ظن انها سوف تؤدى للاهتداء الى تفاهم على أرضية تتلاقى عليها مصالح الفريقين لكن البرتغاليين بعنادهم وطمعهم أضاعوا كل شيء ..

وصف برتغالى للبحرين ودلالاته

ولدينا وصف ظريف للبحرين ضمن بعض رسائل البرتغاليين فى نهاية الربع الأول من القرن السادس عشر نورده بنصه هنا لكى يدرك القارىء الروح التى كانت تحدو أولئك القراصنة وأبعاد النظرة المادية التى كانت تدفعهم الى الكسب بأية وسيلة .

(٤١) « ان البريم (البحرين) التى يعيش فيها تجار كثيرون وغيرهم من الناس الوافرى الثروات تمتاز بموقع فذ وسط الخليج (الفارسى) ويبحر لها العديد جدا من السفن التجارية الموقورة بشتى أنواع البضائع ومن حولها تتكاثر اصداف اللؤلؤ فى البحر من الأصناف الجيدة ، ويتولى تجار من البحرين ادارة عمليات الغوص على اللؤلؤ ويجنون من ذلك أرباحا ضخمة .. ويأتى الى البحرين تجار من هرمز لشراء اللؤلؤ وبالتالى بيعه فى الأسواق الهندية .. ومن صفات جزر البحرين أيضا تعدد ما فيها من الفواكه ، وينابيع الماء العميقة المالحة والتمور والصقور والقمح والشعير والخيول » .

والحقيقة ان سائر غرائز البرتغاليين لجمع المال بأى سبيل قد وصلت نهاية المد فى منتصف القرن السادس عشر ، ففى عام ١٥٤٢ وضعوا أيديهم نهائيا على جمارك هرمز لتكون لهم بالكامل وذلك بالكيفية التى يصفها ويلسون مبينا حقيقة أخلاق البرتغاليين وجشعهم الذى لا يقف عند حد ، يقول بالنص (٤٢) .

« وفى عام ١٥٤٢ ، ونتيجة صعوبات نشأت أمام ملك هرمز حالت بينه وبين الاقتدار على دفع متأخرات الجزية للبرتغاليين والبالغة نصف مليون دوكات وبالنظر لاقتناع نائب الملك البرتغالى مارتيم افغونسو بعجز ملك هرمز عن الدفع ، فقد وافق على صرف النظر عن سائر المتأخرات مقابل اجبار ملك هرمز على تسليم كل ما يتعلق بالجمارك الى البرتغاليين منذ تلك اللحظة . على ان الموظفين المحليين تركوا فى اماكن عملهم ، وتم الخلاص نهائيا من حكاية متأخر الضرائب حيث أصبح البرتغاليون هم مأمورى الجمارك التى آلت لهم بحكم الممارسة الفعلية والأمر الواقع .

ويعلق ويلسون على هذا الحدث بقوله ان سلوك فاريا دى سوزا الغريب حيال هذا الحادث يلقى ضوءا جانبيا مشوقا على سوء الادارة البرتغالية واعمال التنافس على النهب بين الموظفين البرتغاليين . بسبب ذلك كله اتسمت الأعمال الحربية بين البرتغاليين والاتراك بسمة الانتقام المدبر والتدمير ، وقد لعب بير رئيسي أمير البحر التركى كما ذكرنا من قبل دورا بارزا ولكن قومه الاتراك اتهموه بأمور ربما كانوا محقين فى محاسبته عليها لكن احدا لم يروع البرتغاليين ويشعرهم بالهزيمة والتضاؤل مثل ذلك الرجل الذى ما يزال يتمتع بين الاتراك حتى هذا اليوم بشعبية اسطورية . واذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء فان البرتغاليين يشيرون بأسى واضح الى تمكن بير رئيسي من أسر قائد وسائر أفراد حامية مسقط البرتغالية واذا كان قد فشل فى اسقاط قلعة هرمز الحصينة الا انه نزل بالجزيرة وخيم بها وأخضعها لمدافعه وتحركات جنوده الى ان غادر الجزيرة بمحض ارادته ليحتل جزيرة قشم ويفعل هناك ما يشاء ..

وليس واضحا ما اذا كان تعيين مراد بك

الذى كان من قبل قائدا لحامية القطيف التركية التى دمرها دون انطونيو دى نورنها عام ١٥٥٠ بمساعدة بعض المهندسين بين السكان العرب من انصار البرتغاليين ، كان ، أى ذلك التعيين له علاقة باعدام بير رئيسي الذى عرف كيف ينتقم لهزيمة مراد بك بما فعله فى مسقط وهرمز وقشم وعلى اية حال فان مراد بك لم يكن أوفر حظا منه فى المرة الأولى ، لقد حاول عبثا انقاذ سمعته بهجمات غير موفقة على الاسطول البرتغالى .

ويبدو ان الاتراك ندموا على مجمل موقفهم من فئة البحارة المغامرين من تلامذة خير الدين بربروسا الذين تعلموا فروسية البحر فى ساح الذود عن شرف الاسلام بين سواحل افريقيا والاندلس . ولهذا جىء بعلى شلبى الذى يسميه لوريمير (القرصان المتبجح) وقد مر وصف البسالة التى أظهرها ذلك البحار العالم المجاهد فى المعركة الجبارة التى خاضها ضد قوة أكبر بكثير من قوته قرب مسقط وخسر فيها بعض السفن لكنه خرج بقوته الباقية مجتمعة الى صورات .

وفى الوقت الذى يجد فيه لوريمير مشقة بالغة فى تسمية التحركات التركية بأنها انتصارات نجد كاتب مقال المجلة الملكية الاسيوية (٤٣) يقول بالحرف الواحد : « وفى السنوات التالية (يعنى الخمسينات من القرن السادس عشر) سجل الأتراك انتصارات عديدة فى الخليج » .

«لقد فتحوا قشم ودمروا البرتغاليين فيها ودخلوا مسقط ظافرين مرتين وإن اضطروا فى الحالين للخروج تحسبا من الحصار ، كما نزلوا بهرمز وضربوها» .

الصراع الى البحرين

لقد بات واضحا ان البرتغاليين اصبحوا اكثر خبرة من ان يركنوا الى مجرد التفوق النوعى لسفنهم ومدفعيتهم ولذلك باتوا ينشئون صداقة مع كل من هو على استعداد للتفاهم معهم ، ولقد افلحت هذه السياسة عندما هاجم دى نورنها القطيف بداية الخمسينات كما ذكرنا سابقا حيث هرع جماعة مناوئة للعرب ومن انصار البرتغاليين لنجدة الغازى الكافر كذلك نجد القصة تتكرر فى المعركة العنيفة التى دارت سجالا معظم عام ١٥٥٩ وكان فيها انحياز من قسم من الأهالى بقيادة الريس مراد صنيعة البرتغاليين الى أولئك الاعداء فيما كان معظم السكان يشجعون الهجوم التركى على الجزر .

لقد كان الاتراك على علم بما يقاسيه الناس فى البحرين من ظلم البرتغاليين وعسفهم ومصادراتهم لذلك وصل اسطول تركى عام ١٥٥٩ مؤلف من بارجتين وسبعين سفينة شراعية ولا شك ان العديد من الجنود كانوا عربا من البصرة والاحساء ، ويقدر أولئك بألف ومائتى جندى وفى الحال طلب الريس مراد مساعدة البرتغاليين فى هرمز فوافوه بقوة كبيرة انضم لها ثلاثمائة فارس حسنى التسليح من جماعة مراد وقد الحق بالبرتغاليين خسائر فادحة لكن المشكلة كانت فى موضوع القدرة على مواصلة خطوط التموين الأمر الذى اضطر الاتراك فى النهاية الى قبول مصالحة غير مشرفة ..

ولا يذكر أحمد جودت مؤرخ الدولة العثمانية أية معلومات شافية أو تفصيلية تخالف كثيرا ما ذكرناه آنفا ولكنه فى الواقع يعترف (٤٤) بأن الحرب مع البرتغاليين كانت سجالا وانهم كانوا يتمتعون بأسطول قوى وتقاليد بحرية ممتازة .

ويشيد من الناحية الأخرى ببطولة بير رئيسي وعلى بك وينعى سوء حظ الاسطول العثمانى فى المحيط الهندى بسبب

العواصف العنيفة التى حطمت العديد من سفنه هناك فى غير مناسبة واحدة .

عصر التهيؤ البرتغالى للسقوط ١٥٨٠ - ١٦٤٠ م

يمكن تسمية السنوات الستين التى انقضت فيما بين ضم اسبانيا للبرتغال وبين طردهم نهائيا من عمان وخسرانهم سائر مراكزهم الهامة فى الخليج بعصر التهيؤ البرتغالى للسقوط . وتعتبر هذه الفترة استمرارا للوجود البرتغالى فى الاندفاع بقوة الدفعة الأولى لوجودهم (١٥٠٨ - ١٥٨٠ م) .

ولا شك ان سقوط البرتغال تحت السيادة الاسبانية قد افسد معنويات البرتغاليين واحساسهم بالعزة وضعضع فيهم نهائيا روح المبادرة والاستيلاء ، ويمكن اعتبار معظم الفترة الحالية فترة احتضار للتفوق البرتغالى خصوصا بعد تبدل الأحوال فى عمان بقيام دولة اليعاربة واشتداد قوة الانجليز والهولنديين ومنافستهم الناجحة للبرتغاليين فى موالاة الدولة الفارسية وفى اسلوب التعامل التجارى ، فضلا عن تمكن القوة المشتركة للبلدين بالتعاون مع السكان المحليين على جانبى الخليج من استبعاد البرتغاليين من مراكزهم الهامة التى كانوا تجذروا فيها ولا سيما هرمز .

ولعل من المناسب استعراض الأوضاع فى حوض الخليج خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر بداية ضعف البرتغاليين فى عمان ظلت الأحوال تتدهور الى الأسوأ وذلك منذ ظهر فى البلاد امامان فى وقت واحد وهما بركات بن اسماعيل وعبد الله بن محمد القرن [٤٥] ، وذلك قبل ان ينجح أولهما فى اخراج الثانى من حصن بهلا سنة ٩٦٨ هـ الموافق ١٥٦٠ ميلادية . وظلت البلاد بعد هذا الرجل بغير امام الى ان ظهر الامام ناصر بن مرشد أول أئمة الأسرة اليعربية فى عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٤ م) وخلال هذه الفترة تحسن نفوذ النباهنة (النبهانيين) ولكنهم لم يصلوا بأوضاع البلاد الى ما يمكن ان يشكل أى خطر على غزاة الساحل المحتلين من البرتغاليين غير ان صورة الوضع الداخلى كانت صورة محزنة من الخصومات الصغيرة التى لا تتوقف بحيث لم يكن يرجى أى أمل من هؤلاء لتدبير جهد قوى بما يكفل طرد البرتغاليين ويعطينا السالمى صاحب كتاب (تحف الأعيان المبرهن لسوء أهل عمان) صورة مفجعة عن مدى تدهور الأوضاع السياسية عندئذ بعمان فيقول بالحرف الواحد :

« ولبث سيف بن محمد الهنائى فى بهلى [٤٦] ، وآل عمير فى سمائل ومالك بن أبى العرب اليعربى فى الرستاق ، والجبور فى الظاهرة ، والنصارى (البرتغال) فى مسقط وصحار وحلقار وصور وقريات ....

وهكذا خربت عمان بعد العدل والأمان وعاثت الجبابرة .. وظل الحال على ذلك الى ان أظهر الله تعالى الامام الأرشد والهمام الأمجد امام المسلمين ناصر بن مرشد » .

فى البحرين والاحساء

المعلومات المتعلقة بالبحرين بعد فشل الحملة التركية عام ١٥٥٩ تصبح قليلة ، والواقع ان هناك حقيقتين واجبتى الوضوح قبل فهم التغيير الذى طرأ على السياسة العثمانية التركية .

أولا : ان اهتمام الاتراك بولاية الاحساء والانتشار فيها تراجع كثيرا عن ذى قبل ذلك بأن كلفة ادارتها والاحتفاظ فيها بأية قوة عسكرية كبيرة هى أكبر بكثير من اية أموال يمكن ان تصور جمعها على سبيل الضرائب .

وأما الحقيقة الثانية فهى ان الاتراك كانوا محتاجين ماليا لتشغيل ميناء البصرة

وضمان حركة تجارية مريحة فيه لتغطية جزء من نفقاتهم الادارية فى أراض كان قد اصابها بوار مهلك من طول تركها مهملة ولذلك فهم اعتبارا من عام ١٥٦٢ جنحوا الى سياسة أكثر مسالمة .

ويرد فى رسالة نشرها صالح أوزبران من جامعة اسطنبول [٤٧] (كلية الآداب ١٩٧٨ بعنوان رسالتان من دوم ألفارو دى نورنها من هرمز) الى أن النشاط التركى فى صدد التسهيلات التجارية المتبادلة بين البصرة وهرمز كان موضوع رسائل اكثر بكورا من ذلك ويقول نورنها ما يلى : « وفيما يتعلق بتجارة البصرة - هرمز ، واهتمام العثمانيين بها فان الفارو كتب يقول : « وعلى سبيل المثال فالعثمانيون فى البصرة أرسلوا عدة رسائل الى دوم مانويل ، ومنذ وصولى الى هنا جاءت رسالة اخرى من الاتراك ورفعت الى صاحب السمو وفيها يطلب الاتراك ان تظل التجارة مفتوحة ومن جانبهم يؤكدون انهم سيلتزمون بعدم التعرض لها على الاطلاق . لكن الدوم مانويل لم يرد على هذه الاتصالات فقد كانت سياسة البرتغاليين ما تزال باقية على حالها وان كان الفارو شخصيا يقدر تماما مزايا استمرار تجارة البصرة » .

بوادر ندم فى الجانب الفارسى

يبدو ان الجانب الفارسى فى الحلف الفارسى - البرتغالى القديم بدأ يتشكك فى صواب السياسة التى سلكها فى مجمل الأحداث منذ بداية القرن ، فقد اصبحت هرمز وجماركها بل ومعظم تجارة الخليج فى أيدى البرتغاليين الذين لم يكونوا على استعداد لمشاركة احد فى غنائمهم وعلى العموم فان نهاية القرن شهدت برودا حقيقيا فى علاقات فارس بالبرتغاليين وذلك يعود لأسباب كثيرة منها بداية ظهور عناصر أوربية أكثر استعدادا لانشاء علاقات متوازنة مع بلاط طهران . ولقد كان الشاه عباس الذى اعتلى سدة الحكم عام ١٥٨٧ ينظر بحقد الى حيازة البرتغاليين لهرمز وسائر مزايا مينائها وجماركها . وقد تطورت الأمور كثيرا بوصول بعثة الاخوين الانجليزيين شيرلى عام ١٥٩٨ فقد استطاعا اقناع الشاه بمزايا تحسين علاقاته مع الأوربيين . وشتان ما بين الروح الصلبة الرجعية المتعصبة للبرتغاليين وبين مرونة الانجليز وحسن مدخلهم فى الأمور وفى التالى يظفرون بحصة الأسد بعد مرور فترة على شهر عسل أولى علاقاتهم بالدول الشرقية .. أما البرتغاليون المتعصبون فلا هم لهم فى الواقع سوى الابتزاز وحلب أشطر الضحية الى آخر قطرة .

تفاقم أوضاع البرتغاليين

والواقع ان مما أيأس الفرس من حلف البرتغاليين أيضا ان موجة من الدعاية الكاسحة بدأت تعم كل جهة تسم البرتغاليين بالغزاة الكفرة ، وحيث ان العثمانيين بالتفاهم مع العرب قد أججوا مشاعر لم يكن فى وسع الفرس وهم مسلمون أيضا أن يتجاهلوها ويعترف كاتب المجلة الملكية الآسيوية بأن الأحوال ساءت تماما مع البرتغاليين اعتبارا من ١٥٨٠ وهذه ترجمة لما يقوله :

[٤٨] لقد بدأت قوة البرتغاليين تذوى بوضوح لا مراء فيه اعتبارا من سنة ١٥٨٠ ، والسبب الرئيسي هو ضم البرتغال لاسبانيا الذى دام سنتين . لقد كانت هذه حقبة مأساوية فى تاريخ البرتغاليين فى الهند والخليج على السواء فقد

راح يهددهم كل من الترك والهولنديين والانجليز والفرنسيين الذين راحوا يتخاطفون امبراطوريتهم قطعة بعد أخرى » .

ولم يعد فى وسع البرتغاليين القيام بنفقات حامياتهم وكلفة الاستمرار بها ، وفيما كانت كمية التعزيزات ونوعيتها يتناقصان باستمرار كان العرب والفرس يزدادون جرأة فى مقاومة طغيان المستعمرين الكفرة ، وكذلك هبطت سمعة الاسطول البرتغالى وبعد ان كان قباطنة البرتغاليين الأولون يبحثون عن معارك يخوضونها أصبح قصارى مهارة القباطنة الجدد أن يتلافوا المصادمات البحرية ، وبدلا من ان يركز الضباط اهتمامهم فى القتال والشئون العسكرية بات انشغالهم الأساسى فى ممارسة التجارة والتماس الثروة » .

وبعد ان كان الضباط البرتغاليون لا يلقون بالا لكل مزايا استمرار تجارة البصرة ـ هرمز فانهم فى عام ١٥٦٣ تجاوبوا مع رغبة والى البصرة على باشا وبعثوا بأنطونيو تكسيرا الى اسطنبول لكن السلطان العثمانى اتخذ موقفا غير متوقع باصراره على انه اذا كان البرتغاليون هم الطالبين الراغبين فى استمرار تجارة البصرة ـ هرمز فعليهم ارسال مندوب على مستوى رفيع الى البلاط العثمانى لاعلان رغبة بلاده علنا . وفى الواقع فان النشاط التجارى لم ينقطع ولكن على تفاوت فى المستوى وعلى ضوء الأحوال الأمنية وعلاقات الموادعة أو العداوة بين الاتراك والبرتغاليين .

نكسات برتغالية فى الخليج

وجه الاتراك حملة الى مسقط عام ١٥٨١ بقيادة اميرال تركى يدعى على بك وقد عملت المفاجأة عملها فى ترويع البرتغاليين حين وجدوا انفسهم يواجهون هجوما مشتركا من البر والبحر فتخلوا عن قلعتهم وفروا متراجعين الى داخل عمان وقد فشل البرتغاليون فى توفير رد مناسب على تلك الحملة .

كذلك اصيب البرتغاليون بضربة موجعة من السكان العرب فى نخيلوه حين نزلوا هناك عام ١٥٨٥ لينفذوا كما كانوا يعلنون سلفا ، عملية تأديبية هناك لما يدعونه على السكان المحليين من تعويقهم لأعمال موردى المؤن الى هرمز ، لكن البرتغاليين فوجئوا بكمين كان معدا لهم بعناية على طريقهم الى البلدة وبالفعل قتل منهم أكثر من مائتين وخمسين رجلا قبل ان يتمكنوا من التقهقر الى سفنهم ، وكانت تلك ضربة أخرى موجعة لنفوذ البرتغاليين .

ويذكر لوريمير [٤٩] ان البرتغاليين عمدوا عام ١٥٨٦ الى انشاء قلعة اضافية ضخمة فى مسقط وربما كان لذلك علاقة بهجوم الاتراك المفاجىء عليهم قبل ذلك بخمس سنوات لكنه يظل دليلا على احساسهم بالضعف .

بداية العد التنازلى للنفوذ البرتغالى

ليس هناك أدنى شك فى ان خضوع البرتغال لاسبانيا اعتبارا من عام ١٥٨٠ أضر كثيرا بحماسة البرتغاليين للحياة والانتشار والنفوذ ذلك بأن الحكم الاسبانى

كان حكما مركزيا رجعيا الى أبعد الحدود ، وعلاوة على ذلك فقد هزم الاسبان هزيمة منكرة أمام اسطول الانجليز المؤلف من سفن سريعة صغيرة فيها رجال أشد حماسة للنصر من قباطنة الملك الاسبانى وقد أضرت تلك الحرب أضرارا بالغا بسمعة الاسبان ، ووضعت حجر الأساس لنهوض الانجليز ودخولهم حلبة التنافس الدولى من أجل الهيمنة الخارجية والاثراء التجارى الضخم .

وقد بدا واضحا منذ عام ١٦٠٢ ان حالة البرتغاليين فى انحدار محتوم وذلك لدى طردهم من البحرين . وبعد ذلك بسنتين أى ١٦٠٤ اصبح البرتغاليون الذين كانوا لا يأذنون لسفينة بالحركة فى الخليج الا برخصة منهم محرومين من الاقتراب من عدة مواقع خليجية هامة مثل ريق (ريج) ونخيلوه ولكن دعنا نتوقف الآن عند خروجهم من البحرين .

طرد البرتغاليين من البحرين ١٦٠٢ م

ازداد التذمر جدا فى البحرين من تعسف البرتغاليين ويذكر احد الكتاب المعاصرين (٥٠) بأن حاكم البحرين عندئذ كان من أقارب ملك هرمز وكان يعامل الناس معاملة غاية فى الشراسة والنكاية والابتزاز وقد بلغ عسفه الذروة عندما قتل تاجرا بحرينيا ثريا ومعدودا من خيرة الوجهاء فضلا ، وفى الحال وضع حاكم البحرين يده على سائر ثروة القتيل من اللؤلؤ وفيها مجموعة من اللآلىء الممتازة النادرة الوجود .

ومع ان مقتل ذلك الوجيه قد اثار موجة أسى عميقة الا ان الناس كانوا مشبعين بارهاب البرتغاليين وشدة عسفهم فتهيبوا من اشعال الثورة وكان للتاجر القتيل أخ محب للغاية وقد كتم مشاعره وراح يتودد الى الحاكم قاتل أخيه بحيث تمكن من كسب ثقته كسبا تاما مما أعطى الرجل الموتور فرصته الممتازة فانتهزها وقتل الحاكم بخنجر وعلى التو أعلن نفسه حاكما للبحرين وقد تداعى لتأييده معظم سكان الجزيرة وقد تغلب الأهالى على حامية القلعة البرتغالية واحتلوها ووردتهم نجدة من أمين دولة شيراز بقصد المساعدة واعلان الجزيرة تابعة لايران .

وكان البرتغاليون والايرانيون حتى ذلك الحادث يحتفظون بمودة شكلية مصطنعة فيما بينهم حيث لم يعد خافيا ان الانجليز كانوا قد بدأوا يتغلغلون بمهارة وهدوء فى الأوساط الحاكمة فى طهران .

ومن غرائب المصادفات ان وفدا برتغاليا كان لدى سقوط البحرين يزور طهران ليجس نبض الشاه فى امكانية ابرام حلف بين بلديهما ضد الاتراك وكان الدافع الحقيقى وراء هذا العرض البرتغالى هو احساس البرتغاليين بالمزاحمة الخطيرة التى راح الهولنديون - الوافدون البروتستانت الجدد - يضيقون بها الخناق على التجارة البرتغالية فى الهند والخليج بل وفى كل مكان .

وقليلا ما كان يخطر ببال البرتغاليين ان الانجليز أيضا لهم خططهم وان تلك الخطط كانت تعتمد صداقة فارس محورا لها . وكان لطمة للبرتغاليين ما حصل فى البحرين بحيث احتج البرتغاليون على « مساعدة ايران » لثوار الجزر وبالتالى وضع اليد عليها ، وقد رد الايرانيون بأنهم لم يستولوا على جزيرة يحكمها البرتغاليون وانما كان يحكمها قريب لملك هرمز العربى متجاهلين نفوذ البرتغاليين فى الجزر .

محاولات برتغالية لاسترداد البحرين

وكانت البحرين من الأهمية بحيث ان

البرتغاليين رغم كل أحوالهم المتراجعة وظروفهم الصعبة اخذوا فورا فى التخطيط لاسترجاعها ، ولذلك عين حاكم هرمز البرتغالى والمدعو دون بيدرو كونتينو احد ضباطه المسمى الكابتن فرانسيسكودا سوتو ماجور قائدا لقوة مختلطة من البرتغاليين والهرامزة للحيلولة دون قيام الايرانيين بانزال المزيد من جنودهم فى البحرين وكذلك اعادة احتلال الجزر وقد وصلت عدة سفن حربية كبرى من الهند للانضمام لهذه القوة واكمال تشكيلاتها كما وصل جنود كثيرون من هناك ايضا الا ان القوة القادمة من الهند تحت قيادة الدون جورج صاحب قلعة برونو كانت أضعف بكثير من المتوقع كما كانت سفنها ناقصة من ناحية الرجال ، ومن هنا عكف حاكم هرمز على تلافى سائر تلك النواقص لكن أعداءه فى بلاط البرتغاليين بجوا لم يمهلوه لينجز خطته فقد تمكنوا من استصدار أمر بطرده دون ان يعطى أية فرصة للدفاع عن نفسه .

وقد جاء بعده لحكم هرمز رجل يدعى ديازبراتو وكان رجلا دائم المرض ، تبين له عند استلامه السلطة بأن قوات البرتغاليين كانت مستنزفة بسبب انتشار الأمراض فيها من جهة وبسبب كثرة من يحولون منها لمحاربة الهولنديين وقد ناضل مساعده المباشر جاسبر دى ميللو لتجهيز الحملة المستهدفة للبحرين لكنه لم يصادف نجاحا أيضا .

ولدى سماع شاه ايران عباس ان البرتغاليين يعدون لاستعادة البحرين أرسل قوات من خمسة آلاف رجل بقيادة آيم سلطان لتهديد حامية البرتغال فى جمبرون (بندر عباس) وذلك لتحويل انتباههم عن البحرين وفى الحال أرسلت البعثة البرتغالية فى طهران رسالة تحذير الى حاكم هرمز بألا يقوم بما من شأنه افساد جو المفاوضات بينهم وبين ملك فارس .

ويدعى البرتغاليون ان عباس خلال تلك المفاوضات اصدر أمرا بأن تعاد البحرين لهم ولكن ذلك الأمر لم يأخذ طريقه الى التنفيذ .

وحيث وقعت حركة تمرد فى جمبرون (بندر عباس) ضد الحامية البرتغالية هناك فان مجرد التفكير فى عمل ضد البحرين لم يعد واردا فى أذهان البرتغاليين الذين ظلوا يتهددون بالكلام ان يستعيدوها لحكمهم مهما طال الزمان وعلى كل حال فقد كانت هناك مقترحات سخيفة كوسائل الرشوة والتحريض لاستعادة نفوذ البرتغال تدور فى أوساط الحاكم البرتغالى لهرمز الذى كان فيما يبدو قليلا ما يتصور انه هو نفسه سيطرد وان هرمز سوف تسقط لغير البرتغاليين عام ١٦٢٢ .

بداية الدور الانجليزى فى الخليج عام ١٥٩٨

بعد حقبة من انتصار السفن الانجليزية الصغيرة السريعة على الاسطول الضخم الهائل لاسبانيا عام ١٥٨٨ فى موقعة الارمادا الشهيرة ، التى لعب المناخ فيها دورا بالغ الفائدة للانجليز بهبوب عواصف عاتية فى وجه سفن الاسبان الكبرى دفعت بها الى سواحل ايرلنده واسكتلنده فأكملت بذلك عمل المهاجمين المستميتين من بحارة الانجليز الطامعين فى نهب خيرات ذلك الاسطول الكبير ، نقول بعد عشر سنوات فقط كانت طليعة من الانجليز مؤلفة من اخوين شقيقين هما روبرت شيرلى وانتونى شيرلى وصلا الى منطقة قزوين ومعهما كوكبة من الفرسان الانجليز عددهم ستة وعشرون رجلا وقدموا انفسهم لخدمة الشاه .

وقد اندفع الشاه عباس كثيرا فى ثقته

بهؤلاء النفر من (٥١) الانجليز بالرغم من استياء قبائل القزلباش الذين كانوا يشكلون العمود الفقرى فى جيشه ، الأمر الذى حدا بالشاه لقبول نصائح شيرلى فى اعادة تشكيل جيشه على أسس عصرية مع الاتصال بالغرب المسيحى وتوثيق علاقته بهم .. وكان هم الانجليز من البداية المباعدة ما بين الاتراك والايرانيين ليتسنى لهم الوصول الى أهداف مستقبلية طموحه كانت قمة مخططهم الاستعمارى فى الخليج .

وبطبيعة الحال فان الانجليز اختاروا وقتا ملائما لخططهم ضد البرتغاليين والاتراك على حد سواء ، ذلك بأن الاتراك كانوا قد وصلوا فى تقدمهم فى ايران عام ١٦٠٢ الى نهاوند كما كانت تفليس وتبريز وغيرهما من مدنهم فى قبضة الاتراك .

والواقع ان الاتراك كانوا ينشدون وضعا مستقرا مع ايران خصوصا بعد اشتداد المواجهة بينهم وبين البرتغاليين أواسط القرن السادس عشر ، ولكن الايرانيين كانوا يفضلون التفاهم مع الغربيين .

الدور الانجليزى ضد البرتغاليين والاتراك

اندفع الشاه عباس كثيرا وراء منطق شيرلى فأصدر فرمانا يعطى المسيحيين حرية تامة فى ايران فلهم ان يتاجروا ويتصلوا بالناس وينشئوا أية علاقة مع رعايا ايران .

وبينما توجه انطونى شيرلى الى العواصم الأوربية للتبشير لحركة التقارب المسيحى الايرانى كان أخوه روبرت يتولى تدريب جيش جديد للشاه ويباشر المعارك ضد العثمانيين باعتباره القائد العام للجيش الفارسى وهى بادرة استغلها الانجليز حيثما وجدوا خلال عصرهم الاستعمارى من جراء النجاح الذى أحرزته على يد روبرت شيرلى ..

وقد قام روبرت هذا بزيارة للندن ومدريد ووارسو وغيرها من العواصم الأوربية مناديا كأخيه بسياسة الضغط على الاتراك وتشجيع تقدم الايرانيين لتصبح حدودهم متصلة بحدود الغرب المسيحى .

ولم يخف على مدريد أبعاد الخطة الجهنمية التى كان يعد لها الانجليز ففى الوقت الذى كان شيرلى يزور مدريد ، أرسلت توجيهات من الملك فيليب الثالث ملك اسبانيا الى قيادة حامية هرمز بضرورة تحصين القلعة البرتغالية فى الجزيرة تحصينا تاما كما أوعز بالقبض على شيرلى اذا ما أوقع نفسه فى قبضة البرتغاليين .

والحقيقة ان سوء الظن كان واردا على الدوام فقد حدث ان مر الانجليزى فتش بهرمز ومعه ثلاثة من زملائه فى بعثة تجارية الى الشرق شاملا ذلك الصين لدراسة أسواق الحرير والتوابل والتعرف على أوضاع القوى فى المناطق الشرقية ، فقام البرتغاليون بالقبض عليه وسجنه .

وفى عام ١٦٠٨ بدأت شركة الهند الشرقية البريطانية تأسيس أول مركز لها فى صورات بالهند حيث جرى اتصال ودى مع امبراطور المغول ارتكب بسببه الامبراطور أكبر حماقة ارتكبها المسلمون الهنود بتشجيعهم العدو الذى احتل بلادهم وأذلهم فى مقبلات الأيام .

وفى الوقت نفسه بدا أثر الانجليز واضحا فى معاكسة البرتغاليين ومع انهم لم يحصلوا قبل عام ١٦١٦ على أى فرمان يعطيهم تسهيلات خاصة محددة الا انهم عن طريق تدخل الأخوين شيرلى تمكنوا من احداث كل الاثار التى احدثوها فى نفوذ البرتغاليين ، واذا ما قارنا بين وضع البرتغاليين عام ١٦٠٢ ووضعهم مثلا عام ١٦٢٢ فاننا نرى عجبا . لقد خسروا وضعهم فى البحرين

وخسروا هرمز وقشم وصاروا يطاردون من دخول العديـد من المواقـع كنخيلوه وكيش وبندر ريق ، ذلك بأن كـراهية النـاس لهم وجدت فى الانجليز من يشجع على تنظيمها وتوجيهها لغايات فعالة محددة .

ولقـد استمرت العـداوة مستعـرة بـين الانجليز والبرتغاليين بغير تراخ حتى وقـع بينهمـا أول محاولة للتصـالح عام ١٦٣٤ وذلك بعد ان تم أكبر حدث أنهى كل قيمة أساسية فى وجود البرتغـاليين بـالخليج الا وهــو طردهم أولا من قلعتهم فى قشم التى كانت تحرس عملية توريد المياه لهم فى هرمز ثم طردهم بعد ذلك مباشرة من هرمز وذلك بعملية كبرى مشتركة ساهم فيها جيش كبير للشاه عباس فيما تولت السفن البريطانيـة ضرب الاسطول البرتغالى والقلعة فى هرمز حتى سقطت القلعة فى ابـريل عـام ١٦٢٢ وطوى عن قلعتها علم البوكيرك بعد ان رفع عليها مدى مئة وأربع عشرة سنة .

ويحاول المؤرخون الانجليز ان يـوجدوا مختلف اشكال المبررات لموضوع حسـاس يؤرقهم وهو تحالفهم وهم دولة نصرانية مع عدو مسلم ضد أبناء دينهم البرتغاليين وهم يحاولون ايجاد مبررات عديدة عاطفيـة فى مجملها ولا تنهض امام حوار أو نقاش ، من ذلك ان الشـاه عباس هـددهم بأن يـوقف امتيازاتهم وسائر الفرمانات التى أصدرها لصالـحهم بالنسبة لتجارة الحرير وغير ذلك . ومنها ان الذين قرروا اتخاذ ذلك الموقف هم تجـار والتجـار تهمهم كثيـرا مصـالحهم المادية .

وينسى هـؤلاء ان المـوقف مـن الدول الأوروبية وغيرها فى الخليج والمحيط الهندى كان من موضوعات الحاضر والمستقبل التى لا يمكن ان يترك تقريرها لتاجر ، كما ينسون ان الانجليز حاربوا البرتغاليين وهزموهم فى صورات بالهند ابتداء من عام ١٦١٢ والى عام ١٦١٥ ، وانهم لاحقا مثلوا دورا مماثلا مـع الهولنـديين فقـد استعانـوا بهم ضد البرتغاليين ثم قلبوا لهم ظهر المجن .. كذلك فان الانجليز لم يـلاقوا تـرحيبا حـارا من البرتغاليين حين شرعوا فى انشاء مركز لهم فى جاسك بجنوبى الخليج ، ولا حين تمكنوا من الحصول على احتكار للمتاجرة وحدهم بحرير فارس ... وانه لأمر سهل حقيقة ان يزعم الانجليز انهم وصلوا بمجموعة سفن الى جـاسك بمحض الصـدفـة حـين كـان الايـرانيون يصـطدمون بـالبرتغـاليـين فى قشم ، كما انه ليس صحيحا وما كان يمكن ان يكـون صحيحا ان السفن الانجليـزية التى وصلت كانت مجرد سفن تجارية بريئة وان أصحابها أحرجوا كثيرا حين طلب اليهم الاشتـراك فى معـركـة بحـريـة وان بعض البحـارة تمردوا عـلى ذلك الطلب لأنهم لم يتعاقدوا كجنود ولكن كبحارة سفن مسالمة .

ويورد المؤرخ البريطانى هربرت شروط الاتفاق الفارسى الانجليزى الذى تم بموجبه وفى أثره مهاجمة هرمز وهى :

١ ـ تؤول القلعة البرتغالية للانجليز وعـلى الايرانيين ان يقيموا لهم قلعة خـاصة بهم فى الجزيرة اذا شاءوا .
٢ ـ تقسم الغنائم بين الطرفين مناصفة .
٣ ـ الانجليـز يكونـون هم المسئـولين عن الأسرى المسيحيين الذين يقبض عليهم فى الجزيرة أثناء القتال وبعده .
٤ ـ يـدفع الفـرس نصف تكـاليف الحملة الجـارية كـأثمـان الذخـائـر وأجـور النقل .. الخ .
٥ ـ تعفى تجارة بريطانيا فى بندر عباس من الضرائب الى الأبد .

لقد تحمل الايرانيون بقيادة امام قـولى خـان العبء الحقيقى فى معـركـة هـرمـز وخسروا ألف قتيل على أقل تقدير بينما لم تزد خسائر الانجليز على العشرين اصابة ،

أما البرتغاليون بالطبع فان ثلاثة آلاف نسمة منهم بين مقاتلين وأفراد أسر فقد ذاقوا الأمرين من الحصار والجوع والعطش والاصابات والخوف بحيث رق الانجليز لحالهم كثيرا وعاملوهم معاملة جيدة ولكنهم لم يستطيعوا الحيلولة دون فوضى النهب والسلب فى القلعة وفى هرمز على السواء .

وكما ذكرنا من قبل فان سقوط هرمز كان ختام المحاولات الكلامية التى كان يصدر عنها البرتغاليون فى صدد السعى لاستعادة البحرين .

كراهية المنطقة للبرتغاليين

لم يكن الانجليز أو سواهم محتاجين لكبير جهد فى نشر الدعاية ضد البرتغاليين فقد اعتاد أولئك الناس العنف وسفك الدم والنهب وغلظ القلوب وهم لم يكفوا عن عاداتهم حتى بعد مرور أكثر من قرن على ظهورهم الأسود فى الخليج . ففى عام ١٦١٦ م هاجموا فجأة مدينة صحار على ساحل عمان وهى المدينة التى ذاقت الويل منهم مرارا وذلك لأنهم كرهوا ان يظهر ميناء ناشط فى عمان ينافس هرمز ومسقط ولا تكون لهم فيه الكلمة العليا وجمع الضرائب الباهظة وقد قتلوا حامية المدينة وشيخها وأسروا خاله ثم أعدموه .

ولا بد لنا من الاشارة الى ان مصالح الانجليز شملت فارس طولا وعرضا قبل معركة هرمز فقد تعددت بعثاتهم وكثرت وكالاتهم فبالاضافة الى جاسك أسسوا وكالة فى شيراز وأخرى فى اصفهان ولم تفلح جهود البرتغاليين السلمية المستميتة فى اقناع الشاه عباس بالتروى فى علاقته مع منافسيهم .

البرتغاليون يتحولون لمحالفة الأتراك

بقيت للبرتغاليين فرصة وحيدة أخيرة فى الخليج ألا وهى محاولة الارتكاز الى مركزهم المتماسك فى مسقط وعمان عموما وفى الوقت نفسه تجربة التحالف مع الاتراك لمحاولة اعادة التوازن الى الأوضاع فى الخليج بعدما بدت نتائج التحالف الانجليزى الفارسى وما أدى اليه من طرد البرتغاليين من سائر مراكزهم القوية خارج عمان .

وكان أمرا طبيعيا والحالة تلك ان يرحب الاتراك بالتحول القهرى الذى طرأ على سياسة البرتغال وان يفتحوا لهم أذرعهم فى البصرة ليمارسوا كامل الحرية فى تأسيس مركز تجارى وجالية برتغالية هناك خصوصا وان ذلك معناه تحول التجارة البرتغالية الهندية الى البصرة بكل ما يعنيه الأمر من ضرائب وأرباح .

ولكن الطرف الآخر لم يكن غافلا وهنا نلاحظ نشاطا ايرانيا قويا لمحاولة انتزاع البصرة أو التأثير على الوضع فيها ، ونجد البرتغاليين يقفون الى جانب الاتراك فى تأمين البلد وسلامة المرور التجارى اليها من كل اتجاه ..

التعاون الحربى التركى - البرتغالى

محاولة أخرى لاسترداد البحرين (٥٢)

ولدينا رسالة مؤرخة فى ٥ يناير ١٦٢٩ وفيها توجيه من القيادة البحرية البرتغالية الى قائد فصيل بحرى متعلق بأعمال حربية مشتركة بين الاتراك والبرتغاليين وهى تدل على ان الفريقين كانا يشنان هجمات متلاحقة على الشاطىء الايرانى وعلى البحرين ويحاولان جهدهما صرف سائر

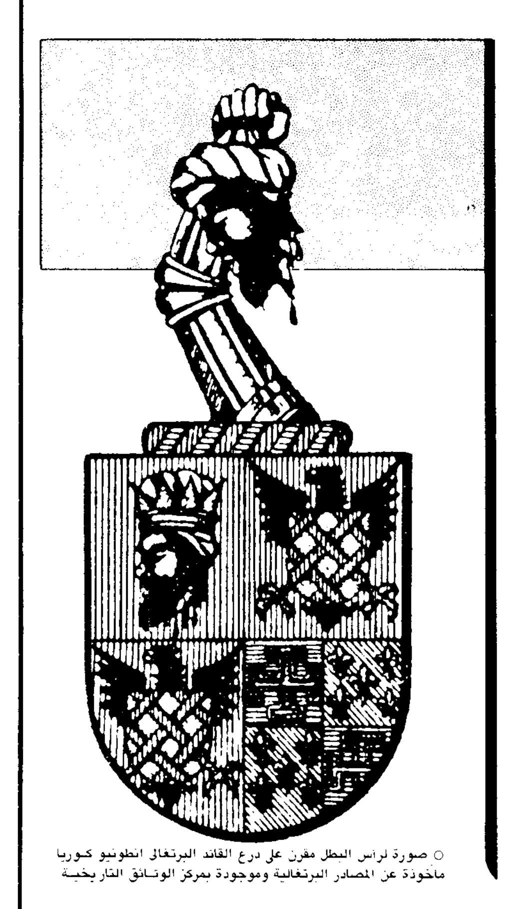
السكان العرب فى شمالى الخليج عن التعامل مع سلطات الجنوب الفارسية ـ البريطانية والتهديد بالانتقام من الذين يقبلون الأمر الواقع هناك والناشىء عن سقوط هرمز وغيرها فى معاقل البرتغاليين .

وللأهمية ولطرافة هذه الرسالة فانى أقتطف فقرات منها أترجمها عن الانجليزية التى كانت ترجمت لها من البرتغالية جاء فى تلك الرسالة أو التوجيه ما يلى :

« لقد برهن على باشا (متسلم البصرة التركى) انه مخلص فى مساعدة حكومة صاحب الجلالة (الاسبانى ملك البرتغال أيضا الى ذلك الحين) فهو قائم على شأن الحرب ضد فارس بتصميم واضح ، بعد ان تمكن مؤخرا من احداث أضرار كثيرة فى البحرين وانه لمن المناسب جدا لنا ان نواصل مساعينا معه لاخلاء تلك الجزر (من قوات العدو) كما ان باستطاعة بوارجنا دعم سفنه فى شن غارات متواصلة على الساحل الايرانى مما يؤدى الى ايقاع خسائر ضخمة بالشاه .

وانها لخطة ملائمة جدا ان نؤجر خدمات سفننا لباشا البصرة فنوفر أموالا على صاحب الجلالة ، وانى اذ أدع قوات الاسطول تحت تصرف سعادتك لواثق بأنك ستحقق به نجاحات جيدة فى كل المناسبات وفيما يلى تعليماتى لك وعليك الالتزام بها الى ان تصلك منى أوامر أخرى .

أولا : عليك مرافقة الباشا (التركى متسلم البصرة) حتى القطيف ، وعليك ان تتوقف عما كنت تعزم عليه من حرق قرى قطر الساحلية ولكن سر قدما الى جزيرة



○ صورة لرأس البطل مقرن على درع القائد البرتغالى انطونيو كوريا مأخوذة عن المصادر البرتغالية وموجودة بمركز الوثائق التاريخية

خارج ، وعليك ان تدمر السفن والمراكب الصغيرة التى تجدها فى طريقك والتزم بقتل من فيها لكى تظل مهابا بمثل هذه الاجراءات الصارمة .

ثم تفصل الرسالة شروط عقد تأجير السفن للباشا خلال شهر اكتوبر ونوفمبر ومصروفات البحارة واطعامهم أيضا على حساب الباشا .

وفى هذا الصدد تقول الرسالة وفى بداية

اكتوبر سيكون على الباشا ان يدفع ١٥ ربع ريال لكل من البحارة وعلى مدى ثلاثة أشهر ومائة من نفس العملة لكل ضابط وثلاثمائة قطعة لسعادتك (القطعة تسمى بارداو ؟) . كما عليه تقديم المئونة للبحارة وفى نـزولهم للبر عليه توفير السكن أيضا .

ثم يـوصيـه بحسن معـاملة الضبـاط والبحارة وتجنيبهم ارتكاب المساءات فى كل من راس التنـورة والقـطيف وان يتحببـوا هناك للأهالى حيث ستكون الاقامـة لثلاثـة أشهـر فى الخدمـة بين سـواحل القـطيف والبحرين فاذا طلب البـاشا ثـلاثة أشهـر اخرى عليك ان تخبره انك تفضل التوجه الى نخيلوه والالتجاء الى مواقع أمينة هناك طوال شهر فبراير حين تكون سفن الأعداء تتجول فى سواحل هرمز ومن ثم تعود الى القطيف بعد فبراير وانت رجل مجرب ولا حاجة لى لأوضح المزيد لك .

واذا طلب الباشا منـك مهاجمـة ايران فعليك الا تتردد كما عليك ان تحاول حرق السفن التى تجـدها قـريبـا من البحـرين وتختتم الرسالة بهذه العبارة :

« وفى الختام فاننى لا احتاج لأن أؤكد لسعادتك كم هو هام ان نحـافظ عـلى هذا الباشا ، ولو لسبب واحد ان لم توجد أسباب أخرى وهو استعداده لتحمل نفقات السفن وبالتالى فنحن سعـداء اذ نبرز لنـا وجودا فعالا فى المضائق علما بأن صاحب الجلالة لا يتحمل آية مصروفات فى ذلك وبذلك فنحن نوقع الأذى بعدونا الفارسى ونعرقل الملاحة فى المضائق (هرمز) ونكبد أعداءنا خسـائر كبيرة وخلاف ذلك مما لا يخفى على رجـل مجـرب مثلك مخلص فى خـدمـة صـاحب الجلالة مولانا الملك .

التاريخ ١٢ سبتمبر ١٦٢٧
(التوقيع غير مثبت)

طرد البرتغاليين من عمان وتحـولهم الى مرتزقة

لكن تأجير السفن البرتغالية الى متسلم البصرة لاحداث تأثير فى الجانب الآخر وهو الحلف الانجليزى ـ الفارسى لم يكن ليغيـر شيئا من حقائق الأمور الجديدة فى الخليج . وعلى العكس من ذلك فان البرتغاليين واجهوا الضربة الأخيرة القاضيـة فى عمان بقيـام دولة اليعاربة وبعد عشر سنوات من الكفاح من ١٦٤٠ ـ ١٦٥٠ م سقـطت صـحـار وكـوراسار ودويـار والقـريـات وفى ١٦٥٠ انتهت الهجمـات المتكررة اليعـربيـة عـلى حصن مسقط الحصين الى تسليمـه وجلاء حـاميـة البـرتغـاليـين وانتهـاء وجـودهم المأساوى فى عمان .. وبذلك لم يبق لهم أى مركز . أما وجودهم فى البصرة فكان وجود جماعة مرتزقـة كما رأينـا فى نص الرسالة السابقة ..

وسبحان الله يداول الأيام بين الناس ..

الهوامش

(١) راجع لوريمر ـ الترجمة المنقحة لمكتب امير دولة قطر. المجلد الاول ـ تاريخي ـ ص ١٠

(٢) موجودات قسم الوثائق لمكتب سمو الأمير «وثيقتا ٥ يناير ١٦٢٩ و ١٠ يناير ١٦٢٩ الترجمة لمكتب جولبنكيان في لشبونة».

(٣) تحفه المستفيد للانصاري مطابع الرياض ١٩٦٠ ص ١٢

(٤) جـ٢ ص ٢٢٨

(٥) النسخة التيمورية ص ٣١٦ ـ رقم النسخة ٩٢٦

(٦) عايشة السيار ـ دولة اليعارية ـ الناشر دار القدس ص ١٩

(٧) التاريخ السياسي لامارة الجبور في نجد وشرقي الجزيرة العربية ـ د. عبد اللطيف الحميدان العدد ١٦ السنة ١٤ مجلة كلية الاداب جامعة البصرة ص ٤٠

(٨) مجلة كلية الاداب لجامعة البصرة العدد ١٦ صفحة ٥١

(٩) دولة اليعارية ـ عائشة السيار ـ نشر دار القدس

(١٠) لوريمر الترجمة الجديدة الجزء الاول التاريخي ص ١١

(١١) دراسات تاريخ الجزيرة العربية ـ الجزء الثاني لمصادر تاريخ الجزيرة ـ مطبعة جامعة الرياض ص ١١٧

(١٢) الرسائل ـ مجموعة جوا دي سوزا ـ قسم الوثائق والابحاث ـ قصر الدوحة.

(١٣) دليل الخليج الجزء الاول ـ ص ١٤ ـ الطبعة الجديدة بالدوحة.

(١٤) مجلة الجمعية الملكية لاسيا الوسطى ـ المجلد ٢٢ لعام ١٩٣٥ ص ٦١٨.

(١٥) دليل الخليج ج ١ ص ١٢ ـ الترجمة الجديدة.

(١٦) الخليج العربي ارنولد ويلسون ـ ترجمة عبد القادر يوسف مكتبة الأمل ـ الكويت ص ٢٠٨

(١٧) الجزء الاول تاريخي ـ دليل الخليج الترجمة الجديدة ص ١٣

(١٨) ارنولد ويلسون ـ الخليج (الفارسي) ترجمة عبد القادر يوسف ـ الكويت ص ٢٠٨

(١٩) ويلسون ـ الخليج (الفارسي) نفس الترجمة ص ٢١١

(٢٠) ص ٦١٨ الجزء XXII مجلة الجمعية الملكية لآسيا الوسطى لعام ١٩٣٥

(٢١) A NARRATIVE OF ITALIAN TRAVELS IN PERSIA IN THE 16th. CENTURY. HAKL. SOC. (LONDON 1873) PP. 221-222.

(٢٢) دراسات الخليج والجزيرة. د. طارق الحمداني ص٦٥ (سنة تاسعة، عدد٣٤).

(٢٣) سائر هذه الاوامر يوجد ضمن وثائق الباشبكنلك (رئاسة الوزراء) اسطنبول وهي مفعمة بالعواطف الجياشة ضد مقاصد البرتغاليين الصليبية.

(٢٤) لوريمر - ج ١ التاريخي ص ١٣ ، الطبعة الجديدة.

(٢٥) الترجمة العربية لكتاب ارنولد ويلسون طبعة الكويت وترجمة عبد القادر يوسف ص ٢١١

(٢٦) تاريخ الدولة العثمانية لأحمد جودت مجلد ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ طبعة ثانية (١٣٠٩ هـ).

(27(SIR ARNOLD WILSON - THE PERSIAN GULF - GEORGE ALLEN AND UNWIN THIRD IMPRESSION 1959 - PP. 117-122 PASSAGES TRANSLATED BY WRITER.

(٢٨) مقال مجلة الجمعية الملكية لآسيا الوسطى مجلد XXII لعام ١٩٣٥ صفحة ٦١٩

(٢٩) دليل الخليج ج ١ تاريخي ص ١٤

(٣٠) أرنولد ويلسون - الخليج الفارسي - النسخة الانجليزية ص ١٢١ طبعة ١٩٥٩ (الثالثة).

(٣١) عبارة الانصاري في تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء القديم والجديد/ مطابع الرياض ١٩٦٠م صفحة ١٢٠

(٣٢) تحفة المستفيد طبعة الرياض ١٩٦٠ الصفحة ١٢١

(٣٣) HISTORY OF PERSIA-SIR PERCY SYKES-THIRD EDITION-PAGE 162

(٣٤) العدد ٢٢ ، لعام ١٩٣٥ من ص . ٦٢٠ - ٦٢٤

(٣٥) دليل الخليج جـ ١ تاريخى ص . ١٥ - الترجمة الجديدة .

(٣٦) لوريمر جـ ١ تاريخى ص ١٥ - الطبعة الجديدة

(٣٧) لوريمر جـ ١ ص ١٦ الترجمة الجديدة .

(٣٨) الدكتور طارق الحمدانى - دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ٣٤ ص ٦٥

(٣٩) كان دخول الأتراك الى القطيف عام ١٥٥٠ بدعوة من السكان العرب .

(٤٠) يرى ذكر هذه الرسالة ضمن رسالة من مناويل دى ليما حاكم هرمز الى نائب الملك فى جوا (يونيو ١٥٤٧) وقد حققها المؤرخ التركى أوزران (الأتراك العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج العربى ١٥٣٤ - ١٥٨١ ترجمة ناجى بغداد ١٩٧١ ص ٣٩ .

(٤١) مجلة الجمعية الملكية لوسط آسيا المجلد ٢٠ ص ٦٢٠ (١٩٣٥ - وصف للبحرين لديورات باربوزا .

(٤٢) THE PERSIAN GULF — ARNOLD T. WILSON, ALLEN & UNWIN P. 124

(٤٣) ص ٦٢٦ الفقرة الثالثة - JOURNAL OF THE ROYAL CENTRAL ASIAN SOCIETY VOL. XXII (1935) P. 626

(٤٤) تاريخ أحمد جودت طبعة ثانية ١٣٠٩ . هجرية مجلد ١ ص ١٤٤

(٤٥) الدكتور سليمان الغنام - مصادر تاريخ الجزيرة العربية الكتاب الأول ص ١١٧ - كلية الآداب/جامعة الرياض .

(٤٦) عن عام ١٦١٦ م/١٠٢٥ هـ - كتاب ابن السالمى اياه .

(٤٧) صورة من الرسالتين المطبوعتين بمكتب الوثائق بالدوحة - ص ٢٤٤ .

(٤٨) مقال الجمعية الملكية الآسيوية XXII ص ٦٢٨ لعام ١٩٣٥ .

(٤٩) لوريمر - القسم التاريخى ص ٢٠ الجزء الأول - ترجمة أحمد العنانى/مكتب الوثائق والأبحاث بقصر الدوحة .

(٥٠) مجلة الجمعية الملكية لآسيا الوسطى - ص ٦٢٨ عدد ٢٢ عام ١٩٣٥ .

(٥١) مصطفى عقيل الخطيب - التنافس الدولى فى الخليج العربى من ١٦٢٢ - ١٧٦٣ .

(٥٢) هذه رسالة أصلية استحصل عليها مركز الوثائق فى الدوحة بالتعاون مع مؤسسة جولبنكيان فى لشبونه وهى تشمل تعليمات الى القبطان د. جونزالودا سلفسترا المسئول عن ٦ سفن برتغالية مسلحة .

المراجع

١ ـ **أحمد جودت** ـ موسوعة التاريخ العثماني ، مجلد ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .
٢ ـ **بيري رئيسي** ـ كتاب البحرية ص ٦٢ ـ ٦٧ .
٣ ـ **ج ج لوريمر** ـ دليل الخليج « القسم التاريخي : جـ ١ ، جـ ٣ » ترجمة أحمد العناني .
٤ ـ **دائرة المعارف الاسلامية** ـ المجلد الثالث .
٥ ـ **سليمان محمد الغنام** ـ الوجود البرتغالي في عمان في المصادر المحلية العمانية ، « من الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الأولى بدراسات تاريخ الجزيرة العربية » الكتاب الأول ، الجزء الثاني ، كلية الآداب/ جامعة الرياض/ ١٩٧٧ م .
٦ ـ **عائشة علي السيار** ـ دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا ، في الفترة من ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ م ، الطبعة الأولى ، دار القدس ، لبنان ، ١٩٧٥ م .
٧ ـ د. **عبد اللطيف ناصر الحميدان** ـ التاريخ السياسي لامارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية ، مجلة كلية الآداب/ جامعة البصرة/ العدد ١٦ ، السنة الرابعة عشرة ، ١٩٨٠ م .
٨ ـ طارق نافع الحمداني ـ تجارة البصرة الخارجية ودورها في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٣٤ ، السنة التاسعة ، الكويت ، ١٩٨٣ م .
٩ ـ **محمد بن عبدالله بن عبد المحسن آل عبدالقادر** ـ تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد ، القسم الأول ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٩٦٠ م .
١٠ ـ **أحمد العناني** ـ الأوروبيون في الخليج « البرتغاليون » ، مجلة الدوحة ، اعداد : أغسطس ، سبتمبر ، اكتوبر ١٩٧٦ م .

11. Documentos Arabicos: Para A Historia Portugueza, Nos. I-II & LII, Documents Sec., Doha Palace.
12. Instructions for D. Goncalo da Silviera, Captain in Chief of Portugal Navy, Documents Sec. Doha Palace.
13. Ozbaran, Salih, Two Letters of Dom Alvaro De Noronha from Hormuz, Edebiyat Fakultesi Matbasi, Istanbul, 1978
14. Various Film Material on Bahrain, No.R/15/2, British Library: India Office Records, London.
15. Journal of the Royal Central Asian Society. Vol XXII, London, 1935.
16 Belgrave, Charles, Personal Column, Librairie du Liban, Beirut, 1972
17. Miles, Colonel S.B., Countries and Tribes of the Persian Gulf, Harrison & Sons, London, 1920.
18. The New Encyclopaedia Britannica, Vols.2 & 14, Hemingway Benton, Chicago, 1977
19. Sykes, Sir Percy, History of Persia, Macmillan, London, 1951
20. Wilson, Sir Arnold T., The Persian Gulf, George Allen & Unwin, London, 1959.